

نَصْرُ الْمَلِكَةِ

obeikandi.com

النشيد الأول

نقّي السّيد

الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون أرسل السّيد ليقبض الجزية من ملك إشبيلية المسلم - الكونت القشتالي غرسية أوردونيث يهاجم ملك إشبيلية - السّيد يدافع عنه لأنه في حماية قشتالة، وينتصر على غرسية أوردونيث في «قبرة»، وبأسره ذليلاً - السّيد يعود بالجزية إلى قشتالة ولكن أعداءه يوقعون بينه وبين الملك - الملك ينفي السّيد^(١).

أرسل الملك دون ألفونسو الفارس رُوى ديات، سيدي لكي يقبض الجزية التي يدفعها له ملكا قرطبة وإشبيلية.

وكان المعتمد ملك إشبيلية، والمظفر ملك غرناطة، في أوج عداوتها، ويكره كل منها الآخر حتى الموت. وكان مع المظفر ملك غرناطة بعض الرجال الأغنياء الذين يساعدونه: الكونت غرسية أوردونيث، وفرتون سانتشيث، صهر دون غرسية ملك نبرة، ولوي سانتشيث... وكل واحد من هؤلاء الرجال الأغنياء يساعد المظفر بكل قوته، وكانوا جميعاً ضد المعتمد ملك إشبيلية.

(١) الورقة الأولى من المخطوطة الرجيدة للملحمة ضائعة، فاستعير عنها بنقل نصها من كتاب «مدونة العشرين ملكاً»، وجاءت بالكثير من أجزاء الملحمة رواية مشوّرة، وما نقلته المدونة مترجم من كتاب «التاريخ اللاتيني للسيد».

وعندما عرف السيد رُوى دِيَاث أنهم اتخذوا موقف العداوة من ملك إشبيلية الذى كان تابعاً، ويدفع الجزية، للملك ألفونسو سيّده، وقع ذلك منه موقعاً سيئاً، وعز عليه كثيراً، فأرسل إليهم جميعاً رسائل يرجوهم فيها أن يعدلوا عن الهجوم على ملك إشبيلية، وتخريب أراضيه، للصلة التى تربطه بالملك دُون ألفونسو، فإذا أصروا على ذلك، مهما يكن الثمن، فليعلموا أن واجب الملك دون ألفونسو أن يساعد تابعه، ولأنه يدفع له الجزية فلم يُقم ملك غرناطة ولا رجاله الأثرياء اعتباراً لرسائل السيد، وهاجموا بعنف ملك إشبيلية، وخرّبوا كل أراضيه حتى حصن قبرة.

وعندما رأى السيد رُوى دِيَاث هذا جمع كل ما استطاع من جيوش من مسلمين ومسيحيين، وسار ضد ملك غرناطة ليطرده، من أراضى منك إشبيلية. ولما عرف ملك غرناطة والرجال الأثرياء الذى كانوا معه، أنه متوجه إليهم بهذا القصد، أرسلوا إليه يقولون: إنه ليس ذلك الرجل الذى يستطيع أن يخرجهم من تلك الأرض. وعندما سمع رُوى دِيَاث السيد هذا أسراً فى نفسه: إنه سوف يخسر شرفه إذا لم يعاقبهم. فهاجمهم، والتحم معهم فى معركة فاصلة، استمرت من الساعة الثالثة فجراً حتى منتصف النهار، وقُتل فيها كثيرون، مسلمون ومسيحيون، من أتباع ملك غرناطة. لقد انتصر عليهم السيد وأرغمهم على الهروب، وأسر السيد فى هذه المعركة الكونت دُون غرسيه أوردونييث، وانتزع شعيرات من لحيته... وأسر فرساناً آخرين كثيرين، يعجز المرء عن حصرهم. وظلوا أسارى السيد طيلة ثلاثة أيام، ثم أطلق سراحهم جميعاً. وخلال أسرهم أرسل رجاله فأخذوا غنائم ما تبقى فى ساحة المعركة من متاع وثروات. ومن هناك رحل السيد مع رفاقه وغنائمه، ليقابل المعتمد ملك إشبيلية.

في إشبيلية أعطى السيدُ الملكُ، ورجاله المسلمين، من الغنائم ما كان أخذَ منهم وتعرفوا عليه، وأعطاهم مما تبقى ما أرادوا، ومن تلك اللحظة أطلق المسلمون والمسيحيون على رؤى ديات دى بيار لقب: السيد القبيطور، أى المحارب.

وقد حمّله المعتمد بالهبات الثمينة، وأعطاه الجزية التى جاء ليقبضها... وعاد السيد مع الجزية ليرى الملك ألفونسو سيده. فأحسن الملك استقباله، وسر كثيراً، وهنأه على كل مواقفه، مما غرس الحسد فى نفوس كثيرين، فكادوا له، وأوقفوا بينه وبين الملك...

ولما كان الملك غضوباً وحاقداً على السيد، فقد أعارهم سمعه... وأرسل إلى السيد رسالة يطلب منه أن يخرج من مملكته وقرأ السيد الرسالة الملكية، وقد فاضر به الحزن، لكنه لم يرد أن يعصى للملك أمراً، ولم يبق من أجل ليرحل عن المملكة غير تسعة أيام فحسب.

١

أرسل السيد فى طلب أقاربه وأتباعه، وتحدث إليهم كيف أمره الملك أن يخرج من كل أرضه، ولم يعطه أجلاً غير تسعة أيام، ويريد أن يعرف من منهم يريد أن يهاجر معه ومن يفضل أن يبقى.

«والذين يريدون أن يأتوا معى سوف يحميمهم الله.
والذين يريدون أن يبقوا سوف أقول لهم كصديق مودعاً: إلى اللقاء».

حينئذ ردّ ألبار هانييث ابن أخيه:

معك ياسيد، معك ثمضى عبر القفار والعمار،

ولن ندعك أبداً ما دام البدن صحيحاً معاف.
 وحتى تهلك في خدمتك الخيل والبغال،
 وتبلى ملابسنا، وتنفد كل أموالنا،
 ونحن الآن، ودائماً، في خدمتك أتباع مخلصون.
 وأمنواً كلهم مجتمعين على ما قاله دون ألبارو.
 فشكرهم سيدي جميعاً على كل ما أبدوه.
 وفي الحال خرج من بيار إلى برغش بلا راحة،
 تاركاً قصوره خالية ومهجورة^(١)،
 وعيناه تفيضان دمعاً.

ثم التفت وراءه، وراح يتأملها للمرة الأخيرة :
 رأى الأبواب مفتوحة وأقفالها مرسله،
 والمشاجب عارية من الملابس، عباءات من قطن أو جلود،
 ولم يكن هناك أيضاً صقور متوقفة ولا نسور مدربة.
 وتهد السيد عميق الألم، طافح الحزن.
 وتحدث كالعهد به، دقيقاً وبحساب :
 « شكراً يا إلهي، يا أبانا الذي في الأعلى،
 أعدائي الملاحين هم الذين سببوا لي هذا الأذى ».

(١) هنا تنتهي الورقة الضائعة من اللحمة في مخطوطة بدمرو آباد، وقد نقل هذا الجزء الضائع من « مئونة العشرين ملكاً »، وباليبيت التالي تبدأ اللحمة، كما وردت في المخطوطة الوحيدة التي وصلتنا.

تفاؤل وتطير في طريق برغش

لقد همزوا الخيل، وأطلقوا لأزمته العنان،
 وهم خارجون من بيار رأوا الغربان عن يمينهم،
 وهم على مشارف برغش كانت تحلق على يسارهم،
 فهزها سیدی كتفيه، ونتر رأسه :
 « الغنائم يا ألبار هانبيث أخرجتنا من أرضنا،
 لكن، ويشرف عظيم، سوف نعود إلى قشتالة ».

السيد يدخل برغش

دخل سیدی زوی دياث برغش،
 وحوله ستون يحملون الرايات،
 وخرجت لرؤيته النساء والرجال،
 وفي كل نافذة بُرغشيون وُبُرغشيات،
 والعيون الباكية تفضح أحزانها،
 ومن كل الأفواه تخرج نفس الحسرة :
 « يا إلهي... يا له من تابع صالح لو كان له سيد طيب! ».

لا أحد يستضيف السيد

- طفلة صغيرة فحسب تتوجه إليه تأمره أن يبتعد -
 السيد يضطر إلى أن يحط رحاله خارج المدينة في الرمال

بكل ترحاب ودوا لو يستضيفونه، لكن أحداً لم يجرؤ :
كانوا خائفين من الملك دون ألفونسو، وغضبه على السيد شديد،
وقبل أن يسقط الليل جاءت إلى برغش رسائل،
تحمل أوامر شديدة الصرامة، أجازها الملك بتوقيعه :
« لا أحد يستضيف سيدي زوى دياث في منزله،
ومن يجرؤ على ذلك فقد قال الملك كلمته،
سوف يفقد أملاكه، ومن وجهه تُقتلع عيناه،
بل ويفقد جسمه وروحه ».

فعم السكان المسيحيين جميعاً حزن كظيم،
وعندما رأوا السيد أعرضوا عنه، ومروا به صامتين.

وتقدم القنبيطور متوجهاً إلى بيته؛
وعندما بلغ الباب وجده مغلقاً بإحكام،
صنع هذا سكان المنزل خوفاً من الملك ألفونسو،
وهو يؤثرون أن يتركوا السيد يحطم الباب على أن يفتحوا له،
بينما أتباع سيدي بأصوات عالية ينادون،
وسكانه من الداخل حتى بكلمة واحدة لا يجيبون.

فهمز السيد فرسه واقترّب من الباب،
ثم انتزع قدمه من المهراز، وركله بمخبطة قوية،
ولكن الباب لم يفتح لأنه كان محكم الإغلاق.
واعترضته طفلة صغيرة ذات سنوات تسع :
« قنبيطور، يا من في ساعة طيبة تمنطقت سيفك!،
لقد منعنا منه الملك، وبالأمرى جاءت رسالة،

تحمل أوامر صارمة، وبالطابع الملكي الممهورة،
ولن نجرو، لأى سبب، أن نقدم لك أو لأتباعك ماوى،
وإذا جرؤ أحد على فعله فقد ثروته ومسكنه،
بل وأكثر من ذلك، يفقد عينيه،

وإذا نزل بنا العقاب يا سيد فأنت لا تريح من أذانا شيئاً،
ارحل إذن، وليحرسك الخالق، ويسبق عليك نعمه المقدسة»،
هذا ما قالته الطفلة، ثم عادت إلى بيتها.

وفهم السيد أن الملك لن يكون عفوًا،
فابتعد عن الباب، وعبر برغش مضى مرتحلاً،
وعندما وصل إلى كنيسة مريم المقدسة ترجل،
وجثا بركبته على الأرض مصلياً، ودعا من قلبه.
وعندما انتهى من صلاته امتطى جواده من جديد،
وخرج من باب «مريم المقدسة» وعبر نهر أزلانثون،
وبجوار برغش، بعد النهر، على الرمال حط رحاله،
ثم أمر فنصبت له الخيمة، وترجل عن جواده،
وهكذا سيدى، رؤى دياث، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة،
عندما لم ير أحداً يستضيفه اتخذ من الرمل معسكراً،
وقريباً منه استراح خلساؤه الذين رافقوه،
وعسكر السيد كما لو كان فى قمة الجبل،
لقد كان ممنوعاً عليه فى برغش أن يشتري من متجر أو بيت
أى شىء يعينه على العيش،
ولم يجزؤ أحد على أن يبيع له حتى أتفه الأشياء.

مارتين أنتولينيث يجيء إلى برغش ليقدم إلى السيد زادا

إنه مارتين أنتولينيث البرغشى الوفي،

من جاء يحمل إلى السيد ورفاقه خبزاً وخبزاً وخبزاً،

لم يشتره لهم؛ وإنما أهداهم مما يملك،

أمدحهم بما هو ضروري من زاد ومثونة،

فُسِّرَ بها سيدي القنبيطور الوفي،

وكل المحاربين الذين في رفقته.

وتحدث البرغشى فاسمعوا ما قال :

«ياقنبيطور، يا من ولدت في لحظة سعاد،

نبق هذه الليلة هنا؛ ثم نرحل فجرأ،

لأن ساعاقب بما قدمت إليكم،

وسوف يلاحقني غضب الملك ألفونسو أكيدا،

وإذا هربت معكم سلباً معاف، وعشت إلى جواركم،

فقريباً أو بعيداً سوف يحتاجني الملك صديقاً،

وإذا لم يحتاجني، فما يهمني أى طريق سلكت.

السيد فقير بلا مال يلجأ إلى فطنة مارتين أنتولينيث -

صناديق الرمل

وتحدث سيدي، من تمنطق سيفه في لحظة سعيدة :

«مارتين أنتولينيث، أيها الفارس الشجاع!
 إذا عشتُ فسوف أضعف لك راتبك؛
 لقد أنفقت الذهب والفضة لسد حاجتي،
 وكما ترى؛ رحلت دون أن أحمل معي شيئاً،
 واحتاج إلى الذهب والفضة لكل تحملي،
 وبالقوة يجب أن أناهما؛ فباللطف لن يعطيني أحد شيئاً؛
 وعملاً بمشورتكم أريد أن أصنع صندوقين،
 نملؤهما رملاً، وهكذا يصبحان ثقيلين،
 صندوقين مغطين بجلد مزخرف، ومسمرين بفن.

٧

الصندوقان يُصنعان للحصول بهما على أموال من يهوديين بُرغشيين

ليكن لون الجلد أحمر، والمسامير واضحة التذهيب.
 اذهب إلى راكيل وفييداس وقل لهما في السر:
 «إنهم في برغش رفضوا أن يبيعوا، والملك غضب على ونفان،
 ولا أستطيع أن أحمل معي ثروتي، ومن ثقلها أعاني،
 وأفضل أن أرهنها لكم مقابل مبلغ معقول،
 وعليكما أن تحملوا الصندوقين ليلاً حتى لا يراكم المسيحيون،
 الخالق وحده يراكم، ومعه كل القديسين،
 وما من طريق آخر، فأنا مكره على ما أصنع الآن.»

مارتين أنتولينيث يعود إلى برغش بحثاً عن اليهوديين

ولم يتأخر مارتين أنتولينيث،

ذهب إلى برغش، ودخل الحصن، حيث يعيش اليهود،
وطلب أن يرى راكيل وفيداس سريعاً.

اتفاق مارتين أنتولينيث مع اليهوديين - اليهوديان يذهبان إلى
خيمة السيد ويحملان الصندوقين مملؤين رملاً

كان راكيل وفيداس جالسين سويًا، مشغولين كليهما
بعدادان الاموال الطائلة التي ربحها معاً،

وعندما وصل مارتين أنتولينيث سأل حذراً مترقباً:

«أين راكيل وفيداس، صديقاتي الغاليتان؟»

أريد أن أتحدث إليهما وحدهما»

لم يتأخرا عليه، وانتحى الثلاثة مكاناً قصياً يتسارون:

«راكيل وفيداس، مُدًا يديكما كلاهما، عاهداني،

لا تكشفوا سرى مخلوق، لا للمسلمين ولا للمسيحيين،

سأجمل منكما ثريين إلى الأبد، ولن تعيشا مطية العمل،

اعلمنا أن القنبيطور هو القائم على استلام الجزية،

وقد تسلم أموالاً طائلة، الذهب فيها أكثر من الفضة،

واحتفظ لنفسه منها بكل ما هو غال وثمين،

ولهذا اتهمه حسّاده عند الملك بأنه استولى على خير ما فيها،
 وفي الحقيقة يملك صندوقين مملوءين من الذهب النضار.
 ولعلكما تعرفان أن الملك غاضب عليه،
 فاضطر إلى ترك ثروته وحصونه وقصوره،

ولا يستطيع الرحيل حاملاً معه ثرواته من الذهب حتى لا ينكشف أمره،
 ويريد القنبيطور أن يترك الصندوقين عندهما،
 وأن تقرضاه مقابل رهنهما ما هو معقول ومقبول،
 خذا إذن الصندوقين، وضعاها في حرز أمين.
 ويقسم عظيم احلفاء، وعاهدان كلاكما،
 ألا تفتحاهما طوال ما يتبقى من العام.»

وفي تأمل عميق فكر راكيل وفيداس لحظة :
 «الذي يهمننا دائماً أن نربح من أية صفقة شيئاً،
 ونحن نعرف أن السيد ربح كثيراً،
 عندما اقتحم أرض المسلمين وقبض الأموال منهم،
 ومن يملك ثروات طائلة لا ينام مطمئناً،
 سوف نأخذ هذين الصندوقين إذن،
 ونضعهما في مكان أمين غير معروف، لا يبلغه أحد،
 ولكن، حَدِّثْنَا عن السيد، كم يطلب في مقابلتها مالا؟
 وكم من الفائدة يعطينا لما تبقى من العام.»

فردّ هارتين أنتولينيث الحذر في هدوء :
 «سيدى يحبّ ما هو حق وعدل،

رجال حوله، وآخرون من كل صوب يجيئون، وكلهم معدمون،

واعتقد أن ست مائة مارك تكفيه لمواجهة نفقات تابعيه».

قال راكيل وفيداس : « سنعطيا له مسرورين ».

فردّ مارتين : « انظرا، الليل يزحف علينا، والسيد عجل، نافذ الصبر،

وفي حاجة ماسة لأن تعطونا الست مائة مارك الآن ».

وردّ راكيل وفيداس : « الاتفاقات التجارية لا تتم هكذا،

بل نأخذ نحن أولاً، ثم نعطيك ثانياً ».

فقال مارتين أنتولينيث : « ليس لدى مانع،

ومعاً، نذهب ثلاثنا متفقين، لرؤية القنبيطور،

ثم نعينكم، وذلك حق وواجب،

في نقل الصندوقين؛ ووضعها في مكان أمين،

على ألا يعرف ذلك إنسان، لا مسلم ولا مسيحي ».

فردّ راكيل وفيداس : متفقون،، حيثذ ندفع لكم؛

ما إن يصل الصندوقان هناك، حتى تكون في يدك ست مائة مارك ».

مسرعاً امتطى مارتين أنتولينيث سهوة جواده عائداً،

وتبعه راكيل وفيداس راغبين ومسرورين.

لم يمرّوا عبر الجسر، ولكنهم خاضوا صفحة النهر،

حتى لا يحس بهم مخلوق في برغش،

وعجلين دخلوا خيمة القنبيطور،

وما إن دخلوا حتى تقدم اليهوديان، وقبلًا يد السيد،

وابتسم سيدي، ثم تحدث إليهما :

« يادون راكيل، ويادون فيداس، لعلكما نسيتماني !،

إن أدع هذه الأرض مرغماً لأن الملك نغان،

ويخيل إلى أنكما تذكران عني شيئاً،
 ما مد الله في حياتكما فلن تتعرضا لمزيد من قسوة العمل». .
 حينئذ قبل راكيل وفيداس يد سيدي.
 ثم أعلن الطيب مارتين أنتولينيث صيغة الاتفاق،
 «ست مائة مارك مقابل رهن الصندوقين،
 يحتفظان بهما حتى نهاية العام،
 على هذا تم الاتفاق، وعلى تنفيذه حلفاً،
 وإذا فتحهما قبل انتهاء السنة يعاقبان أكيدا،
 ولن يعطيهما سيدي من أرباحهما درهما واحداً». .
 وقال مارتين أنتولينيث: «احملا الصندوقين، الآن، سريعاً،
 احمل ياراكيل، وأنت يافيداس، وضعاهما في حرز أمين،
 وسأذهب معكما لأقبض المال المتفق عليه،
 لأن سيدي عليه أن يرحل قبل أن تغني الديكة»
 يا لسرورهما وهما يحملان الصندوقين!
 ولم يستطيعا رفعهما رغم قوتها،
 لقد غمرت البهجة راكيل وفيداس فرحاً بما أصابا من أموال،
 ولأنهما سوف ينفقان ما تبقى لهما من الحياة في ثراء.

١٠

اليهوديان يودعان السيد - مارتين أنتولينيث يذهب
 مع اليهوديين إلى برغش

أخذ راكيل يد سيدي ليقبلها :

«قنبيطورا!... يا من في ساعة طيبة تمنطق سيفه،
دع قشتالة إلى أرض بعيدة، اذهب وعش مع أناس لا تعرفهم،
ذلك هو حظك، وستكون أرباحك عظيمة،
ياسيدي، أقبل يدكم، وأرجو صنيعا:

عباءة من جلد، عربية الصنع، جميلة الشكل، حراء اللون»
وقال السيد: «شيء يسرف، وأعدكم بإرسالها، كأنها قد جاءتكم فعلا،
سوف أرسلها لكم من هناك وإلا فإحصا ثمنها مما في الصندوقين»
حل راكيل وفيداس الصندوقين،

ومعها مارتين أنتولينيث، ودخلوا بُرغش متخفين.
وفي سرية تامة وحذر شديد وصلوا البيت،
وفي وسط القصر بسطا مُصلي^(١)

وفوقها ملاءة ناصعة البياض، دقيقة النسيج،
وعليها نثرا دفعة واحدة ثلاث مائة مارك من الفضة،
عدها دون مارتينو، وبلا نقد أخذها،
والثلاث مائة الباقية سوف يدفعانها ذهبيا نضارا.

وملا دون مارتينو الأكياس الخمسة التي أحضرها معه،
وعندما أتم هذا اصغوا إلى ما تحدث به:
«يادون راكيل و يادون فيداس، الصندوقان الآن معكما،
وأنا مما رجتم بسببي أستحق هدية، زوجا من النعال!»

(١) أي سجادة، ولكن اللعنة تستخدم الكلمة العربية Almotalla وكانت شائعة الاستعمال في
الأندلس، عند المسلمين والمسيحيين على السواء، من يتكلم العربية أو من يتكلم الرومانشية.

السيد وقد تسلم المال من مارتين أنتولينيث يتها للرحيل

وانتحي راكيل وفيداس جانبا، وبينها دار الحديث هسا،
فلنعطه هديةً ثمينة، لقد بحث عناً وأثرانا:

«يا مارتين أنتولينيث، أنت برعشَى معدود،

تستحق منا مكافأة طيبة، سندفعها لك شاكرين،

ومنها تستطيع أن تشتري عباءة غالية، ونعلا من جلد متين،

سنقدم لك هدية ثلاثين ماركا كاملة،

إنها حق لك فقد صنعت فينا معروفا، وطبقا للاتفاق

عند الاختلاف أنت شاهد العقد الذى أمضيناه.»

فشكرهما دون مارتين وقبض الثلاثين ماركا،

وبعد قليل خرج من البيت فودّعه كلاهما،

خلف برعش وراءه، وغبر جسر أرلانثون،

وذهب إلى خيمة من وُلد في لحظة سعيدة،

فاستقبله السيد مفتوح الذراعين،

«وصلت؟ مارتين أنتولينيث، يا تابعى الوفى،

متى يأت اليوم الذى أستطيع أن أكافئك فيه!»

- «نعم، أنا هو، يا قنبيطور، وأحمل معى أخبارا طيبة،

ست مائة مارك لك، وثلاثون رجتها لى،

مُر بالخيمة تطوى، وهيا بنا سريعا،

لنبلغ مدينة سان بطرس دى كاردينيا مع غناء الديكة،

ونرى زوجتك، هذه السيدة العاقلة النبيلة،
فلنظروا الأرض طيباً، ونخرج من مملكة قشتالة،
شيء لا بد ننفعله، فالاجل المحمّد للنفي قارب النفاذ».

١٢

السيد يمتطى جواده، ويودع كتدرائية بزغش
وينذر بأن يصل ألف مرة في مذبح العذراء.

وما إن قيلت هذه الكلمات حتى طويت الخيمة،
وركب سيدي ورفاقه الخيل مسرعين،
ونحو شتتمرية وجه الفارس جواده،
ورفع يده اليمنى ملوحاً ثم صلّب يقول:
«أشكرك يا إلهي، يا مالك الأرض والسما،
لتحفظني رعايتك المحيطة يا مريم المقدسة!
من هنا سأفارق قشتالة لأن الملك غاضب عليّ،
ولست أدري هل أعود يوماً للعيش فيها مرة أخرى،
فلتصحبني حمايتك في رحلتى يا مجيدة،
ساعديني، أعينني في ليلي ونهاري،
وإذا ما فعلت ذلك، وتحققت آمالي،
فسأقدم لمذبحك هبات جميلة وغالية،
ولك نذر عليّ أن أصلي ألف قدّاس».

مارتين أنتولينيث يعود إلى المدينة

ألقى الرجل الرزين القوى كلمة الوداع حزينا،
 ثم أرسلوا الأعنة، وحثوا الخطى،
 وقال مارتين أنتولينيث البرغشي الوفي :
 « سأذهب لأرى زوجتي، لأصبرها، وسأودعها هادئا،
 وأرشدتها كيف تتأسى في غيبتى،
 وإذا صادر الملك ثروق فلن يهمنى،
 وسوف أعود إليكم ثانية قبل أن تشرق الشمس».

السيد يذهب إلى كاردينيا ليودع أسرته

بينما عاد دون مارتينو إلى برغش أخذ سيدي وجهة أخرى،
 انطلق إلى سان بطرس دي كاردينيا، وجدّت الخيل ما استطاعت،
 وحوله رجال يفتدونه بكل حماسة،
 وعندما وصل القنبيطور الطيب إلى سان بطرس،
 وجد الشّمس دون شائجه، وهو مسيحي ومخلص للخالق،
 يصل مع الفجر الذهاب صلاة الصبح لله،
 وهناك كانت دونيا خمينا وخمس سيدات أخريات جئن معها،
 تدعو القديس بطرس، والخالق :
 « أنت، يا هادي الجميع، احفظ سيدي القنبيطور».

رهبان كاردينيا يستقبلون السيد وتصل خمينا وبتاها للقاء المنق

طرقوا الباب. وشاع الخبر بين الجميع،

يا إلهي!... كان وجه الشماس دون شاعجه يتضح بشرا.

ووسط المشاعل والقناديل ذهبوا إلى الفناء.

وفي بهجة عارمة استقبلوا من وُلد في لحظة سعيدة،

وقال الشماس شاعجه: «شكرا لله يا سيدى»

أنتم الآن عندى، إلى جوارى، وستكونون ضيوفى».

وقال السيد، من ولد في لحظة سعد:

«شكرا سيدى الشماس وبركم مدفوع،

سوف أعد الطعام أنا، لى ولأتباعى،

ولانى مكره على الرحيل عن هذه الأرض سأترك لكم خمين ماركا،

وإذا مد الله فى حياتى فسوف أدفعه لكم مضاعفا،

فلا أودُّ أن احمل الدير مزيدا من النفقات؛

ولدونيا خمينا أعطيكم خمسين ماركا أخرى،

هى وبتاها، ومن معها من سيدات، آوهن هذا العام،

سأترك لكم بنتى طفلتين، فأحطمهما برعايتك،

أوصيك بهن خاصة، أنت يا شماس، دون شاعجه،

هما وزوجى، اعتن بهن جيدا، وقدم لهن كل ضروب الرعاية،

وإذا نفذ المال، أو نقصكم شىء، فسوف أرسل لكم ما تحتاجون،

كل مارك تنفقه عليهن أردّه إلى الدير أربعة».

وأمن الشمس على قوله ووافق مغتبطاً،
 هاهي دونيا خمينا قادمة مع بنتها،
 كل طفلة مع حاضنتها تحملها بين ذراعيها،
 واقتربت دونيا خمينا، وأمام القنبيطور جثت على ركبتيها،
 تبكي غزيرة الدمع، تريد تقبيل يديه :
 « شكراً قنبيطور، يا من ولدت في لحظة سعد؛
 إن دسائس المؤذنين المخربين أخرجتك من بلدك منياً ».

١٦

خمينا تأسى لأن طفولة بنتها بلا حماية
 السيد يأمل أن يتزوجن زواجا مشرفا

« اسمعني ياسيد؛ يا صاحب اللحية الغزيرة،
 أنا هنا في حضرتك، وبتاك، وبتاك
 عُضَّتَانِ، ومازالتا بعدُ طفلتين،
 وهناك السيدات اللائق يقمن على خدمتي،
 وفيما أرى أنت تنهياً للرحيل،
 وسنفترق عنك من هذه اللحظة إلى حين،
 فبحق مريم المقدسة هبنا نصيحة مخلصه ».
 ففتح ذراعيه واحتضن طفليته، صاحب اللحية الجميلة !،
 وضمهما إلى قلبه فقد كان يحبها كثيراً.
 وبكت عيناه بدمع غزير وتهد عميقاً :
 « يا دونيا خمينا، يا زوجتي الوفية،

أحبك كثيراً، مثل ما أحب نفسي.
أراني مكرهاً على الرحيل، وأحياء سفترق منذ اللحظة.
سأذهب أنا، وأنت هنا تتألين.

إليك أضرع يا إلهي، ويا مريم المقدسة :
بيدي هاتين أزوج بنتينا،
وهبني حظاً وطول عمر،
لكي أسعدكم يا زوجتي الشريفة».

١٧

مئات القشتاليين يتجمعون في برغش ليرحلوا مع السيد

أعدوا وليمة كبرى للقنبيطور الطيب،
وفي نغم مؤثر بدأت أجراس كنيسة سان بطرس تدق،
وعبر قشتالة كلها، بين قراها، تحدّث الناس بالخبر،
كيف رحل سيدي القنبيطور عن أرضه منفياً.
بعض الذين تبعوه خسروا قصورهم، وفقد الآخرون ألقابهم،
وفي نفس اليوم عبر جسر أرلاثون؛
مائة وخمسة عشر فارساً مجتمعين؛
كلهم يسأل عن سيدي القنبيطور،
وانضم إليهم مارتين أنتولينيث،
ثم اتجهوا جميعاً إلى سان بطرس ليلقوا من ولّد في ساعة طيبة.

المائة قشتالي يصلون إلى كاردينيا ويعلنون ولاءهم للسيد -
 السيد يتيها لمواصلة السير في الغد - قداس الصباح في كاردينيا
 - صلاة خمينا - وداع السيد لأسرته - وصايا السيد الأخيرة
 لشناس كاردينيا - السيد يسلك طريقه نحو المنفى، ويهبط الليل
 بعد أن اجتاز نهر دويره.

وعندما رأى سيدي، ابن بيبار،
 أن جماعته نمت، وقوتهم زادت،
 امتطى جواده مسرعا وخرج للقائهم،
 وعندما وقعت عينه عليهم غلبته الابتسامة،
 ثم أقبلوا عليه جميعا يقبلون يده ولاء.
 وتكلم سيدي صادق العزيمة قويا:
 إني لأرجو الله، والأب الروحي،
 وقد تركتم من أجلى بيوتكم وأراضيكم،
 أن أصنع لكم الكثير الطيب قبل أن أموت،
 وما خسرتوه لن يضيع سدي، سوف تقبضونه مضاعفاً.
 كان سيدي طافح البشر بانضمام آخرين إليه، ونمو جيشه،
 وكل رجال الحملة مبهجين مثله، لأنهم معه،
 ومر من الأجل المحدد ستة أيام،
 وبقيت ثلاثة فحسب، لا تزيد ساعة كما تعرفون،
 وأمر الملك بمراقبة سيدي،

حتى إذا انقضى الأجل ولمّا يزل في أرضه بعد،
لم يستطع الإفلات ولو دفع ما في الأرض من فضة وذهب،
وبينا النهار يتلاشى، والليل يتأهب للدخول،
أمر كل فرسانه أن يجتمعوا :

« اسمعون أيها الرجال، لست أريد أن أسبب لكم ألماً،
ولو أن ما معي قليل أود أن أعطيكم نصيكم كاملاً،
وليكن واضحاً في أذهانكم ما يجب عليكم أن تفعلوا :
صباحاً عندما تغنى الديكة،
أسرعوا وأسرجوا خيولكم،

وفي كنيسة سان بطرس سنجد الشماس الطيب يقرع أجراس الصباح،
فيصلي بنا قداس الثلاثة الأقداس،
فإذا انتهى القداس أسرعنا السير،
لأن نهاية الأجل تقترب، والطريق أمامنا ممتد .
وما إن أمر سيدي حتى أطاق الجميع،
تصرّم الليل، واقترب الصبح،
وصاحت الديكة للمرة الثانية فأسرعوا يُسرّجون .
وأجراس الصباح تدق سريعة متلاحقة ،
فذهب سيدي وزوجته إلى الكنيسة،
وعلى درجات المذبح ألقت دونيا خمينا بنفسها،
ترجو الخالق بكل ما في وسعها،
أن يحفظ الله سيدي القنبيطور من كل سوء :
« ياإلهي المجيد، ياأبانا الذي في السماء،

يا من خلقت السماء والأرض، وفي اليوم الثالث البحار،
 وخلقت النجوم والقمر والشمس لتدفع النهار
 وتمثلت شخصاً في مريم المقدسة،
 وولدت في بيت لحم كما كانت إرادتك،
 فجدك الرعاة، وتغنوا بحمدك!
 وجاء ثلاثة ملوك من الجزيرة العربية ليعبدوك،
 ملتشور، وجاسبار، والتسار،
 وقدموا لك مسرورين الذهب والطيب والمر،
 أنت، يامن أنقذت يونس عندما ابتلعه اليم،
 ودانييل من الأسود في السجن اللعين،
 وقدمت العون في روما للسيور سان سباستيان،
 وأنقذت سانتا سوزان من الجريمة المزيفة،
 وعلى الأرض بقيت اثنين وثلاثين عاماً ياروح الإله،
 وأظهرت معجزات كثيرة خارقة، واجبنا أن نتذكرها:
 جعلت من الماء نبيذاً، ومن الحجر خبزا،
 ونهض أليعاذر من القبر حياً لأنها كانت إرادتك،
 وتركت اليهود يسكون بك فيها يُسمى جبل الزيتون Calavrio،
 ثم حملوك إلى جبل الجلجلة Golgota حيث صليوك وتركوك تموت^(١)،
 وإلى جوارك لسان، واحد في كل جانب،

(١) تصور الشاعر أن كلمتي Golgota, Calvario اسمان لجبلين مختلفين في فلسطين، وأن اليهود أسكوا بالمسيح على الجبل الأول، وصلبوه على الجبل الثان، والحق أنها اسمان لجبل واحد، الأول اسمه في اللاتينية، والثاني في العبرية، أما الجبل الذي أسكوا بالمسيح عنده فهو جبل الزيتون.

أحدهما للجنة، والآخر لن يراها أبداً،
وَأنتِ على الصليب صنعت معجزة كبرى؛
كان لولوجينوس أعمى؛ لم ير في حياته النور أبداً؛
ففتحت جنبه بسكين وجرى الدم غزيراً
على حد السكين الأسفل؛ وبه تلطخت يداك؛
فرفعها لولوجينوس وحملها إلى وجهه،
وفتح عينه فرأى كل الجهات،
وفي الحال آمن بك لأنك أبرأته من علته،
ومادفنت في القبر حتى عدت مبعوثاً،
ثم هبطت إلى الجحيم لأن هذه كانت إرادتك،
فحطمت الأبواب وأخرجت من هناك الآباء القديسين،
أنت ملك الملوك، وأبو العالم كله،
إنني أعبدك، وأومن بك، بكل قوق،
وأرجو القديس بطرس أن يساعدني في دعائي
لسيدي القنبيطور، كي يحفظه الله من كل سوء.

وإذا كنا سنفترق اليوم، فسوف نلتق غداً إذا امتدت بنا الحياة».

وبانتهاء الدعاء انتهى القدّاس،
وخرج الجميع من الكنيسة وامتطوا صهوات الخيل.
وتأهب السيّد ليعانق دونيا خمينا،
بينما دونيا خمينا تتأهب لتقبل يده،
تبكي عيناها والهة، ضائعة لا تعرف لهما مستقراً!.

وعاد هو يتأمل بنتيه :

« في رحاب الله أدعكم، إنه الأب الروحي .
سنتفرق الآن، والله وحده يعلم متى نعود فلنتق » .
وبكت عيناه بدمع مرير كما لم يبك من قبل،
وفي مثل انتزاع الأظافر من اللحم كانت لحظة الوداع،
سيدي وأتباعه سارعوا إلى امتطاء جيادهم،
والتق السيد نظرة على أتباعه مستعرضاً، ثم استدار برأسه .
وفي حماسة حارة تكلم مينايا ألبار هانييث :
« سيد، يامن وُلِدَ من أم في لحظة طيبة، لتكن قوياً،
نحن نفكر في الطريق ولا نريد أن نحيد عنه،
وكل هذه الآلام ستقلب سعادة وأفراحاً،
والله الذي وهبنا الروح سوف يشملنا بحمايته » .
نادوا الشَّماسُ شالجه، ومن جديد عادوا يروضونه مؤكدين، أن يُعنى
بدونيا خمينا وطفلتها اللات عنده .
وكل السيدات اللات يقمن في رفقتها،
وتأكد الشماس من أنه سيربح تعويضاً كبيراً .
وعندما اقترب دون شالجه بادره ألبار هانييث :
« شَّماس ! . . . إذا رأيت خلقاً قادمين لينضموا إلينا،
يحملون سلاحهم ويتهبثون للمسير،
فقل لهم أن يقتفوا أثرنا ويغذوا السير،
إنهم يستطيعون أن يلحقوا بنا، في القرى كنا أو في الوهاد » .
امتطوا صهوات الخيل، وأرسلوا أعتنَّها، وبدأوا يتحركون،
لأن الأجل المحدد للنتق قارب الانتهاء،

واستسلم سيدي للنوم في قرية « إسبناث دى كان ». وفي تلك الليلة لحق به خلق كثير، توافدوا عليه من كل مكان! وبكرة اليوم التالي، تابعوا الرحلة من جديد، في هذه اللحظة كان القنبيطور الوفي يَحْلَفُ أرضه وراءه، سلك طريقه على يسار مدينة سان استيان دى غرماج الكبيرة، ومن بعدها اجتاز القوية حيث تنتهى قشتالة، وكان عليه أن يمر بسفح كينيا، ومن فوق قرية نيفاس دى بالوس عبر نهر دويره، وعندما وصل مدينة فجير آثر سيدي أن يستريح، وهناك أيضاً اجتمع حوله خلق كثير، جاءوا من كل حذب وصوب.

١٩

آخر ليلة أمضاها السيد في قشتالة - ملاك يواسى المنق

وعندما أقبل المساء نام سيدي، غمره نعاس حلوا فاستغرق في نوم لذيذ، وجاءه في نومه الملاك جبريل :
 « ارحل ياسيد، أيها القنبيطور الطيب، فلم يحدث أبداً أن رحل رجل له من الحظ مالك، ومادمت على قيد الحياة، فكل شيء سيمضى لك على مايرام، وعندما استيقظ السيد من نومه، وتذكر حلمه، صلب.

٢٠

السيد يعسكر على حدود قشتالة

صَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ وَاسْتَعَاذَ بِاللَّهِ،
 وَكَانَ مَحْمَرًا الْوَجْهَ، طَافِحَ الْبِشْرَ، مِمَّا رَأَى فِي مَنَامِهِ،
 وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِيِ بَدَأُوا يَرْحَلُونَ،
 كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ الْيَوْمَ الْآخِرُ مِنَ الْأَجْلِ الْمَضْرُوبِ،
 فَاتَّجَهُوا نَحْوَ جِبَالِ مِيدَسَ، وَفِيهَا حَطُّوا رِحَالَهُمْ يَسْتَرْحَمُونَ،
 عَلَى يَمِينِ قَلَاعِ أَتَيْنَا حَيْثُ يَقِيمُ الْمُسْلِمُونَ.

٢١

السيد يتثبت من عدد رجاله

الْيَوْمَ لَمْ يَزَلْ نَهَارًا، لَمَّا تَغْرَبَ شَمْسُهُ بَعْدَ،
 فَقَامَ سَيْدِي الْقَنْبِيْطُورُ بِاسْتِعْرَاضِ قَوَاتِهِ، وَتَبَيَّنَ عَدَدَهُمْ،
 وَدُونَ احْتِسَابِ الرَّجَالَةِ، وَالشَّجْعَانَ الَّذِينَ مَعَهُ،
 أَحْصَى عَدَدَهُمْ فَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةِ فَارَسَ، كُلَّهُمْ يَحْمِلُونَ رَايَاتَ.

٢٢

السيد يدخل مملكة طليطلة الإسلامية
وهي في حماية الملك ألفونسو، وتدفع له الجزية

قَدَّمُوا الشَّعِيرَ لِلنَّخِيلِ مَبْكِرِينَ، يَنْصَرِكُمُ الْخَالِقُ!
 مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْكُلَ فَعَلْ، وَمَنْ لَمْ يَرِدْ فَلْيَسْرِعْ بِالرُّكُوبِ.

سوف نعبّر سلسلة الجبال وهي مرتفعة وعسيرة،
ومن ثم نستطيع هذه الليلة أن نخلف أرض الملك ألفونسو وراءنا،
وبعد ذلك من يبحث عنا سريعا يجدنا.
ليلا عبروا سلسلة الجبال، ثم أشرق الفجر،
وتحت، عبر السفح، بدأوا جميعاً يسيرون.
ووسط غابة مخضرة وواسعة،
تعباً سيدي ليستريح؛ وبدأوا يوزعون الشعير،
وصارح السيد رجاله جميعاً بأنه يؤد الرحيل ليلا،
فقبل تابعوه الطييون راضين ومخلصين،
وكل ما يأمرهم به سيدهم جميعاً يطيعونه،
وعندما انتشر الليل بدأوا يرحلون،
لأن سيدي حريص على ألا يكتشفوه أو يحسوا به «
وقد ساروا طوال الليل دون أن يتوقفوا لحظة،
فبلغوا موضعاً يقال له قسطلون دي هنارس،
وعنده تهباً سيدي والذين معه ليعدوا كميناً.

خطة هجوم - قسطلون تسقط في يد السيد فجأة -
الإغارة على القلعة

أمضى سيدي القنبيطور كل الليل في الكمين،
عملاً بنصائح أبار هانييث دي مينايا :
« يا سيد، يا من تمنطقت سيفك في ساعة طيبة !،

ونحن نعدّ الكمين لقسطلون،
 تبقى أنت مع مائة من رجال حملتك
 وراء الجميع، مختفين تحرسون المؤخرة،
 ونعطون مائتين لكى أذهب بهم فى المقدمة،
 ومعنا الله، وحظك، سزريح غنائم طائلة».

فرد القنبيطور: «صواب ما قلت يامينايا،
 أنت، مع مائتين، تذهب للإغارة،
 وبصحبك ألبار ألبارث، و ألبارسالفادورث فارمن نبيل
 ومعكم جالين غرسية النبال الجرىء.
 فرسان ممتازون أولتكم الذين رافقوا مينايا.
 اهجموا فى جراءة ولا تتركوا وراءكم شيئاً خائفين.
 اذهب من ناحية «هيتا»، ومن تحت ماراً بوادى الحجارة،
 حتى تبلغ طليعة الحملة مدينة القلعة،
 واحملوا معكم بعناية كل الغنائم،
 ولا تتركوا وراءكم شيئاً خائفين من المسلمين،
 وأنا مع المائة فارس سابقى هنا فى المؤخرة،
 مدافعا فى قسطلون، لأنى أتوقع خديعة كبيرة،
 وإذا تعرضت المقدمة لأى خطر،
 أرسل إلى عاجلا فى المؤخرة،
 والمساعدة التى سأقدمها لكم سوف تتحدث عنها كل إسبانيا».

نودى الذين عليهم أن يذهبوا للإغارة،
 والذين سيقون مع سيدى فى المؤخرة.

وانهم الفجر، وأقبل الصبح،
 ثم أشرقت الشمس. يا إلهي.. كم هو رائع تفتح الحياة!
 نهض الجميع في قسطلون،
 فتحوا الأبواب وأخذوا طريقهم إلى خارج المدينة،
 لكي يباشروا أعمالهم، ويُعنوا بمزارعهم،
 خرجوا جميعاً، وتركوا أبوابهم مفتوحة،
 وقلة من الناس بقيت في قسطلون،
 أما الذين خرجوا فانتشروا في كل جانب،
 حيث ترك القنبيطور الكمين،
 وأسرع، دون تأخير، إلى قسطلون ليحاصرها،
 ويأسر كل المسلمين والمسلمات،
 ويغتم القطعان التي ترعى حول المدينة،
 فاقرب سيدي دون لذريق من أبوابها،
 والذين كانوا حراساً عليها عندما رأوا تدفق الجنود،
 امتلأوا رعباً وتركوا المدينة هارين،
 فاجتاز سيدي رُوي دياث أبوابها:
 شاهراً سيفه، عارياً في يده،
 وقتل ممن أدركهم خمسة عشر مسلماً،
 وريح قسطلون، وما فيها من ذهب وفضة،
 وجاء رجاله بالغنائم محملين،
 فتركوها بين يدي سيدي، دون أن يهتموا بما تساويه.
 بينما المائتان وثلاث ممن هم في المقدمة،

يطوفون الأرض وينهبون كل ما عليها،
وحتى مدينة القلعة وصلت راية مينايا،
ومنها عادوا محملين بالغنائم،
عبروا «هنارس»، من فوقها، مارين بوادي الحجارة،
ومن هناك جاءوا بغنائم كثيرة لا تحصى،
قطعان عديدة من الغنم والبقر،
ومن الثياب الغالية، وثروات أخرى هائلة،
وبميناً حيث مرت راية مينايا،
لم يمرر مخلوق على أن يهاجمهم من الخلف،
ومع الغنائم التي جنوها عادت الحملة،
متوجهة إلى قطلون حيث كان القنبيطور،
فترك القنبيطور الحصن محروساً في أمان،
وخرج للقاء رجاله على رأس مؤخرته،
وبأذرع مفتوحة استقبل مينايا :
«وصلت؟! . . يا ألبارهانبيث، يا صاحب النبال الجريئة،
عندما أرسلتكم إلى المعركة وضعت فيكم كل أملي،
والآن ، فلنجمع معا كل الأرباح، وكل الغنائم، ما معكم وما معي،
وسوف أعطيك خمسها، إذا أردت يا مينايا».

مينايا لا يقبل أى نصيب من الغنائم ويدعو للسيد شاكرأ علانية
«من قلبي أشكركم، أيها القنبيطور المعدود!

الخمس الذى أمرت بأن يدفع إلى،
 يبقى لكم لكى تدفع منه لألفونسو القشتالى ما تريد،
 لن آخذ نصيبى، وها أنذا أردته لكم، وعندكم يبقى،
 عليه عاهدت الله، ذلك الذى فى الأعلى،
 حتى أحقق رغائى فوق جوادى الأصيل،
 محاربا المسلمين فى الحقول،
 مستخدما النبال، وشاهراً سيفى فى يدي،
 وعلى كوعى يتدفق الدم حاراً وملتها،
 أمام زوى ديات المقاتل المعدود،
 إنى أرفض أن تدفع لى مالا لا أستحقه وما توقعته،
 ومن الآن إذا غنمت أشياء غالية الثمن فسابق مع نصيبى.
 أما غنائم اليوم، فهى بين أيديكم، كلها لكم».

٢٥

السيد يبيع خمسه للمسلمين - ولا يريد صراعا مع الملك ألفونسو

كل الغنائم كانت مكومة هناك.
 وفكر السيد، من تمنطق سيفه فى ساعة طيبة :
 إن الملك ألفونسو قد يجيء مع جيشه،
 ليبحث عنه، وليهاجمه مع كل أتباعه.
 فأمر السيد رجاله بتوزيع الغنائم كاملة بأسرع ما يستطيعون،
 وخمسه من الغنائم كقائد يقيدونه فى سجل،
 وأن يأخذ الفرسان سهمهم المقدر، وما أكثره!

مئة مارك من الفضة لكل واحد،
 وأن يأخذ الراجل نصف ما يأخذ الفارس، بلا نقص أو زيادة،
 وفق الخمس لسيدى كاملا،
 لا يستطيع أن يبيعه، وليس هناك من يُهدى إليه،
 ولا يَودُّ أن تعود حملته بأسرى أو أسيرات.
 فحدث أهل قسطلون، وأرسل يسأل في هيتا ووادي الحجارة،
 ومهما يكن السعر الذى يدفعونه فستكون أرباحهم عالية.
 إذا رغبوا فى شراء خمسة، فكم يدفعون له ثمنا؟
 دفع له المسلمون أكثر من ثلاثة آلاف مارك من الفضة،
 فقبل سيدى ذلك العرض وسرَّ به كثيراً،
 وفى اليوم الثالث سلّموه المبلغ كاملا بلا نقصان.
 حينئذ فكر سيدى وكل رجال حملته،
 فى أن الحصن ضاق بهم فلم يعد يتسع لهم جميعا،
 على أى حال لقد استولى عليه رغم أنهم قطعوا عنه الماء،
 «والمسلمون فى سلام، فقد أمضوا معه الاتعاق،
 والملك الفونسو يمكن أن يجيء على رأس جيشه،
 ولهذا أريد أن أغادر قسطلون، اسمعون جميعاً، وأنت يا مينايا!».

السيد يتجه نحو أرض سرقسطة،
 وهى فى حوزة ملك بلنسية المسلم

ما أقوله لكم لا تأخذوه أبدا مأمندا سيئا،

تعرفون أننا في قسطلون لا نستطيع الإقامة،
 لأن الملك ألفونسو قريب منا، ويبحث عنا،
 كذلك لا أريد تدمير الحصن،
 وسأطلق سراح المائة مسلم والمائة مسلمة الذين معنا،
 حتى لا يتحدثوا عنى بسوء، رغم أنني استوليت على ثروتهم،
 وقد دفعت لكل واحد منكم نصيبه؛ ولم يتخلف أحد،
 وغدا صباحاً نفكر في الرحيل؛
 فمع ألفونسو، سيدي، لا أريد خصاماً.
 من الحصن الذي استولوا عليه رحلوا جميعاً أغنياء،
 وحياتهم عند الرحيل المسلمون والمسلمات،
 ومن فوق اتجهوا إلى هنارس، يغذون السير ما استطاعوا،
 اجتازوا مدينة القرية عابرين، ومضوا بلا توقف،
 وخلفوا وراءهم كهوف أنكيثا،
 ثم خاضوا المياه ودخلوا سهول تارانث،
 وخلالها تقدمت القافلة ما استطاعت السير،
 وألقى سيدي رحاله بين أريثا وثينا،
 وانتزعوا غنائم وافرة من كل أرض عبروها،
 ولم يدرك المسلمون مدى فداحة الجراءة التي تتحرك بينهم،
 وفي اليوم التالي تحرك سيدي دي بيار،
 فجاز الحامة وعبر هوث،
 ومر بقرية بوبيركا مخلفا وراءه أتيكيا؛
 ثم استراح سيدي على مشارف القصير،

فوق تل مدور، قوى ومرتفع،
 هناك يعسر أن يُحصَر عنهم الماء،
 فقريبا منهم يجرى نهر شلون،
 وسيدي دون لذريق يأمل أن يستولى على القصير.

٢٧

السيد يعسكر على مشارف القصير

عسكر رجله على التل، وأخذوا يُعدون خيامهم،
 بعض الخيام على سفح الجبل، وبعضها الآخر قريبا من الماء،
 والقنبيطور الطيب، من تمنطق سيفه في لحظة سعد،
 حول الهضبة تارة، وإلى جانب النهر تارة أخرى،
 يأمر رجاله جميعا أن يحفروا الخنادق،
 وما من أحد يجزؤ على الهجوم، ليلا أو نهارا،
 لأنهم يعرفون أن سيدي هناك مقيم.

٢٨

خوف المسلمين

عَبْرَ كُلِّ الأَرْضِ انْتَشَرَ الخَبْرُ :
 إن القنبيطور سيدي قد عسكر هناك،
 ترك المسيحيين وجاء ليعيش مع المسلمين،
 وجيرانه لا يجرعون، خوفا منه، على العمل في المزارع القريبة،
 كان سيدي مبهجا، وكذلك كل تابعيه،
 لأن سكان حصن القصير سيدفعون له الجزية عما قريب.

القنبيطور يستولى على القصير خدعة

دفع سكان القصير لسيدى الجزية،
ومثلهم أهل مدينتى أتیکا وتيرير،
وعرف الذين فى قلعة أيوب أن ذلك مصيرهم،
لقد جاء سيدى وألقى رحاله هنا منذ خمسة عشر أسبوعاً، وعندما رأى السيد
أن القصير لن تستسلم،

ابتدع خدعة حربية جديدة ولم يتردد فى استخدامها :
ترك فى المعسكر خيمة واحدة قائمة وأمر فطويت الخيام الأخرى،
واتجه هابطاً نحو نهر شلون، ناشراً رايته،
ارتدوا الدروع السابغة، والسيوف فى أغنادها،
وهذه الخدعة الذكية سيجعلهم يقعون فى المصيدة،
وجاء أهل القصير وقد رأوهم يرحلون، يا إلهى... كم هم فرحون !
« لقد نفذ خبز سيدى وشعيه،

وبجهد استطاع أن يحمل خيامه، وبقيت له واحدة منصوبة،
لقد أسرع سيدى راحلاً، كهارب من هزيمة،
فلنشب عليه الآن، ومع الهجوم ستريح غنائم وفيرة،
قبل أن يسبقنا إليها سكان تيرير من الخلف،
لأن هؤلاء إذا هزموه لن يعطونا من الغنائم نصيباً،
لقد وابت الفرصة لنسترد الجزية التى دفعناها له مضاعفة» .
خرج أهل القصير من الحصن، واندفعوا نحوه بأسرع ما يستطيعون،

وعندما تبينهم سيدي من بعيد تظاهر بالهرب،

واتجه هابطاً يقود رفاقه نحو نهر شلون،

وقال أهل القصير: «سوف تفلت منا الغنائم!».

فتقدم الرجال والصبيان مسرعين،

نهمين إلى الغنائم لا يفكرون فيما عداها،

تاركين أبوابهم مفتوحة لا يقوم على حراستها مخلوق،

تلقت القنبيطور الطيب خلفه،

فراى أن بينهم وبين الحصن مسافة شاسعة،

فأمر برفع الراية، ثم غمزوا جيادهم مسرعين:

«إيهم أيها الرجال.. اطعنوهم جميعاً، أطعنوهم بلا خوف

ويفضل الخالق ستكون الغنائم من نصيبنا».

وعادوا مسرعين فالتقوا بهم في بطن الوادي،

ياإلهي، آية بهجة غامرة لفتحهم ذلك الصباح!

سيدي و ألبار هاننيث كانا في الطليعة،

على جوادين كرمين يدفعان بهما إلى حيث يريدان،

وسريعا حالوا بين المسلمين وبين الحصن، ثم دخلوه.

وأبغ سيدي انقضوا عليهم يهاجمونهم بلا رحمة،

فقتلوا في قليل ثلاث مائة مسلم.

حينئذ خرج المختفون في الخندق، وبأصوات عالية أخذوا يصيحون،

ثم تقدموا نحو الحصن وأحاطوا به مسرعين،

وعلى أبوابه، شاهرين السيوف، راحوا يتدافعون،

ولحق بهم رفاقهم عجلين فقد بلغوا النصر الذي يريدون،
وهذه الخدعة استولى سيدي على القصير.

٣٠

راية السيد تحقق فوق القصير

جاء بدرو برمودث حامل الراية يلوح بها في يده،
وعلى قمة الحصن رفعها من أعلى مكان فيه.
وتكلم سيدي زوى دياث، من وُلد في ساعة طيبة :
« شكراً لك يا إله السماء، ولكل القديسين،
لقد تحسنت إقامتنا، للخيل وللفرسان ».

٣١

رحمة السيد بالمسلمين

أسمعني يا ألبار هانيث، وكل الرجال،
لقد رحمنا كثيرا باستيلائنا على هذا الحصن،
فالمسلمون يرقدون موت، وأرى قليلين منهم على قيد الحياة!
وليس بوسعنا أن نبيع الأسرى من المسلمين والمسلمات،
ولن نجني من وراء قطع رؤوسهم شيئاً،
إذن فليبقوا معنا داخل الحصن، وقد أصبحنا سادته،
نحن نقيم في بيوتهم، وهم على خدمتنا يقومون.

ملك بلنسية يحاول أن يسترد القصر فيرسل جيشا محاربة السيد

استولى سيدى على حصن القصر، ومع الغنائم التي ربحها بقى فيه،
وأرسل فى إحضار الخيمة التي تركت منصوبة هناك.
لقد ألم انتصاره سكان أتিকা، ولم يكن أهل تيرير بأقل ألام،
وحزن أهل قلعة أيوب لا نتصار رجل بيبار،
فأرسلوا إلى ملك بلنسية يقولون :
« إن رجلا يدعى السيد زوى ديات دى بيبار.
اختلف مع الملك ألفونسو فأخرجه من أراضيه،
جاء فعمسكّر من القصر فى مكان جيد التحصين،
ثم نصب كميناً لسكانه، فأخرجهم من ديارهم، وبعدها استولى على الحصن.
ويدون مساعدة منك سوف نفقد أتিকা وتيرير،
وقلعة أيوب ستلحق بهما، ولن تفلت من هذا المصير،
والحالة من سئى إلى أسوأ على شاطئ نهر شلون،
والشئء نفسه حدث لشلوقة على الضفة الأخرى».
ولم يكد الملك تميم يسمع ذلك حتى أحس بحزن عميق :
« أرى ثلاثة ملوك مسلمين حولي يقيمون،
اثنان منكم يذهبان إليهم الآن بلا تأخير،
فسوف يمدونكم بثلاثة آلاف مسلم مسلحين، وللقتال مهيبين،
ومعهم حراس الحدود سيرعون لعونكم مع أول نداء،

خذوا السيّد حيًّا، وأحضروه أمامي،
لقد دخل أرضي، وعليه أن يدفع الجزية لي». .
ثلاثة آلاف مسلم تحركوا في شوق إلى الهجوم،
وعندما هبط عليهم الليل في شيقورب حطّوا الرحال نازلين،
وفي صبيحة اليوم التالى أغدّوا السير مسرعين،
حتى إذا لفهم الظلام نزلوا في «ثيلا» مستريحين،
ثم طيّروا الخبر لسكان الحدود،
فلم يتأخر أحد منهم، وأخذوا من كل حذب وصب يتوافدون،
من ثيلا جاء الذين كان يُطلق عليهم أهل ثيلا القنّاة،
أجهدوا الخيل طوال اليوم، فلم يتوقفوا لحظة واحدة،
وعندما أدركهم الليل في قلعة أيوب ألقوا عصا التسيار مطمئين.

٣٣

حارث وغالب يحاصران السيّد في القصير

نصبوا الخيام وعسكروا مطمئين،
ثم توالى الإمدادات وتضخمت الجيوش،
وكل الطلائع التى بعث بها المسلمون،
مدججة بالسلاح لا تكف عن الحركة ليل نهار،
كثيرون هؤلاء الحراس، وكانت المحلة ضخمة،
ولما قطعوا الماء عن سيدي وأتباعه تعجّل جيشه المعركة،
فصدّهم عنها بحزم من وُلد في لحظة سعد،
وهكذا عانوا من الحصار على امتداد ثلاثة أسابيع.

السيد يشاور رجاله - استعدادات سرية - السيد يخرج
إلى المعركة الفاصلة ضد حارث وغالب - بدر و برمودة
يوجه الضربات الأولى

انتهت الأسابيع الثلاثة وفي مطلع الرابع،
دعا سيدي رجاله مُشاوِراً، ليصل إلى اتفاق :
« لقد قطعوا عنا الماء وغداً ينفد منا الطعام،
وإذا أردنا الخروج ليلاً فلن يتيحوا لنا الفرصة
إنهم أشداء أقوياء فلا قدرة لنا على نزالهم،
أشيروا على أيها الرجال بما تفضلون أن تفعلوه».

فتكلم مينايا أولاً، رجل شديد الولاء :

« من قشتالة اللطيفة جئنا إلى هنا،

فإذا لم نكافح ضد المسلمين لم نكنسب لقمة العيش،

ونحن ست مائة رجل وربما أزيد قليلاً،

وباسم الخالق ليس أمامنا من طريق آخر،

غير بدء الهجوم عند انهزام الفجر».

فرد القنبيطور « لقد صادف حديثك هوى في نفسي،

حديث شرفت به يا مينايا، وماتوقعت منك غيره،

إن أمركم بإجلاء كل المسلمين والمسلمات،

حتى لا يعرف أحدٌ منهم ماذا نعد لهم في السر من شباك! ».

بينما انصرفت بقية الجيش، ليلاً نهراً، لإعداد السلاح،

وصباحاً، في اليوم التالي، والشمس على وشك الشروق،
 تسلح سيدي وكل الذين كانوا معه.
 وتحذث القنبيطور بما ساحكيه لكم :
 « نخرج جميعاً، فلا يبقى منا أحد، لاستثنى من ذلك مخلوقاً،
 غير راجلين فحسب يقومان على حراسة الباب،
 فإذا لقينا مصرعنا في ساحة الحرب فليدفنونا في الحصن،
 وإذا انتصرنا في المعركة تضخمت ثرواتنا،
 وأنت يابدرو برمودث : خذ رايتي،
 لأنك تابع وقى وستحافظ عليها بإخلاص،
 ولكنكم لن تتقدموا معه حتى آمركم ».

فقبل ميثايا يد السيد، وتسلم الراية،
 وفتحت الأبواب فخرجوا جميعاً، دفعة واحدة،
 حينئذ رأتهم عيون المسلمين فعادوا إلى محلهم منبئين؛
 يا لهم من مسرعين هؤلاء المسلمين وهم يتشققون السلاح من جديد،
 ثم ارتجت الأرض أمام ضجيج الطبول.
 انظر إلى المسلمين يتسلحون مسرعين، ويتجمعون صفوفاً،
 وفي مقدمتهم جميعاً تخفق رايتان رئيسيتان،
 ورايات أخرى كثيرة مختلطة، من يستطيع أن يعدها؟
 إن جيوش المسلمين تتحرك متقدمة،
 تريد أن تقضى على سيدي وتابعيه :
 - اثبتوا في أماكنكم أيها الرجال،
 حذار أن يفارق أحدكم الجميع حتى آمركم ».

ولكن بدرو برمودث لم يستطع صبرا،
 رايته في يده، بدأ يتقدم ملوحاً:
 «ليحرسك الخالق، سيدي القنبيطور الربي،
 سوف أثبت رايتنا عند أكثر جنود المسلمين عدداً،
 والذين يجب عليهم أن يصمدوا دونها سترى كيف يفعلون».
 فصاح القنبيطور: «لا تفعله بحق الله».
 فردّ بدرو برمودث: «لم تعد هناك وسيلة أخرى!».
 ثم همز جواده، وألقى بنفسه بين أكبر الصفوف عدداً،
 فتلقاه المسلمون يريدون انتزاع الراية منه،
 وصوتوا إليه ضربات قاصمة، لكنهم لم يستطيعوا أن يغلّبوه،
 حينئذ صاح السيّد في رجاله: «اذهبوا إليه، ساعدوه بحق الله!».

٣٥

أتباع السيّد يذهبون لمساعدة بدرو برمودث

رفعوا شعاراتهم أمام قلوبهم،
 وجعلوا نبالهم ملفوفة في أعلامهم».
 وانحنوا بوجوههم على سروجهم،
 يودون أن يلقوهم بقلوب مطمئنة،
 وبصوت عال نادى من وُلد في ساعة طيبة:
 «إليهم، أيها الفرسان، حُجّاً في الخالق!»
 أنا رُوي ديات، السيّد.. من بيبار.. القنبيطور».
 فارتعوا كلّهم على الجماعة التي يقانلها بدرو برمودث،

وكانوا ثلاث مائة نبال، جميعاً مع راياتهم،
فقتل كل واحد مسلماً، كل واحد قتل واحداً في هجمة واحدة.
وعندما عاودوا الهجوم مات آخرون كثيرون .»

٣٦

تدمير مزارع الأعداء

نبال كثيرة وعديدة تعلق وتبسط،
وسهام كثيرة محطمة دون أقواسها،
وأعلام عديدة بيضاء احمرّ لونها من الدم،
وجياد كثيرة كريمة، دون فرسانها ولّت هاربة .»
المسلمون ينادون محمداً، والمسيحيون يدعون القديس يعقوب،
وفي الرادى، في مكان ضيق، كانوا يرقدون،
ألف وثلاث مائة مسلم موتاً!

٣٧

التنويه بالفرسان المسيحيين البارزين

ياله من مناضل عنيد فوق سرجه الذهبي،
سيدى روى دياث، المقاتل الشجاع،
وميتايا ألبار هانيث، وكان القائد فى ثورينا،
وأيضاً مارتين أنتولينيث، ذلك البرغشى الوفى،
ومونيو جوستيوث ريبب القنيطور،
ومرتين مونيث وكان القائد فى مونب مايور،

ثم ألبار ألباروث، وألبار سلفا دُورث،
ومعهم جالين غرسية، القادم من أرجون،
وفيلكس مُونيوث ابن أخ القنبيطور،
وكلّ الذين كانوا هناك، ومَنْ تقدّموا جميعاً،
لإنقاذ الراية، والسيد القنبيطور.

٣٨

مينايا في خطر - السيد يُخرج حارثا

صرّعوا حصان مينايا ألبار هانييث،
فهرعت الجيوش المسيحية لمساعدته،
نفدت نباله فانتضى سيفه وأخذ يقاتل،
وراجلا يصارع، وجه إليهم ضربات قاصمة،
ورآه سيدي روي دياث القشتالي،
فاقترب من الوزير، وكان على جواد كريم،
وبضربة سيف قاصمة من يده اليمنى،
شقّه من وسطه، ورمى بنصفه أرضاً،
وأعطى فرسه لمينايا ألبار هانييث :
«اركبه يا مينايا، فأنت ساعدى الأيمن،
وقدمت لى فى هذا اليوم عوناً كبيراً،
مازال المسلمون ثابتين، وفى ساحة المعركة يقاتلون،
رواجبنا أن نأتق عليهم جميعاً».
امتطى مينايا جواده، ثم شهر سيفه،

ورمى بنفسه وسط الجموع يقاتل بعنف،
ومن يلقه من الأعداء يصرعه في ضربة واحدة،
وسيدى، روى دياث، من وُلِدَ في ساعة طيبة،
اقترب من الملك حارث، ورماه بثلاث طعنات،
أخطاه في اثنتين؛ وأصابته الثالثة فتدفق منه الدم غزيراً؛
ثم استرد عنان فرسه يريد ترك المعركة.
وبهذه الضربة الحاسمة هزم الجيش.

٣٩

غالب جريح، والمسلمون مهزومون

وجّه مارتين أنتوليئييث ضربة قاصمة إلى غالب،
فألقي بزينة خوذته بعيداً؛
ثم شقها نصفين حتى بلغ اللحم،
وعرف أن غالباً لن يقاوم الضربة الأخرى،
وهكذا خسر الملكان حارث وغالب المعركة،
يا له من يوم رائع في تاريخ المسيحية!
لقد هرب المسلمون هنا وهناك،
ولم يتردد أتباع سيدى في لحاقهم،
فلجأ الملك حارث إلى تيرير،
وحالوا دون غالب فلم يبلغها،
فاستطاع أن يذهب إلى قلعة أيوب،
فلاحقه القنبيطور من قريب،
وظل يلاحقه حتى بلغ أسوار المدينة.

مينايا يرى دعاءه وقد تحقق - غنائم المعركة

السيد يهبئ هدية للملك

كان جواد مينايا البّار هانييث مباركاً عليه،
 فاستطاع أن يقتل من المسلمين أربعة وثلاثين،
 سيفه القاطع أغرق ساعديه في الدم،
 ومن كوعه راح يقطر أحمر متوهجاً.
 وقال مينايا : « الآن أخذت بحق،
 ونستطيع أن نرسل إلى قشتالة هدايا غالية،
 من التي غنمها سيدي رُوي ديات مقاتلا في المعركة،
 كثيرون من المسلمين يرقدون موق، وقليلون تركوهم أحياء،
 والذين تجبّوا وراءهم من يلاحقهم،
 ثم عاد أتباع من وُلد في ساعة طيبة،
 وكان القنبيطور ممتطياً صهوة جواده الكريم،
 وقد لفّ رأسه بكوفية، يا إلهي.. كم هو وقور اللحية!
 وتدلت الكوفية على كتفيه، بينما السيف في يده،
 ورأى أتباعه كيف يلتفون حوله :
 « شكراً لله، ذلك الذي في الأعلى،
 دون قتلى كثيرين منا انتصرنا في المعركة ». .
 وانصرف أتباع سيدي إلى المعسكر ينهبون :
 الرايات والسلاح، وأشياء أخرى كثيرة وغالية،

وكل ما توصلوا إليه مما يخص الموريثيين^(١)،
فكان من بينها مائة وعشرة من الخيل الجياد.
وعمت بهجة غامرة بين هؤلاء المسيحيين،
عندما تبينوا أنهم لم يخسروا غير خمسة عشر قتيلًا،
وغنموا من الذهب والفضة ما حاروا معه أين يحفظون.
وأتحموا بالثروة جميعًا، هؤلاء المسيحيون،
من تلك الغنائم الهائلة التي أصابوها،
وردوا المسلمين إلى حصنهم، وكانوا قد أخرجوهم منه.
وأمر سيدي بأن يقدم لهم من الزاد شيئًا.
كانت بهجة سيدي وكل أتباعه غامرة.
فأمر بتوزيع الأموال والثروات التي غنموها،
وكان من بين ما وقع له في مُحمسه مائة حصان،
يا إلهي... كم كان كثيرًا ما دفعه لكل واحد من تابعيه،
سواء أكان من الفرسان أو الراجلين!
لقد عوضهم خيرًا من وُلد في ساعة طيبة،
كل الذين جاءوا معه، وهم كثيرون قبضوا، وياتوا مبتهجين.
- « اسمع يا ميناييا، أنت ساعدى الأيمن!،
ومن هذه الثروات التي وهبنا الخالق،
وهي كثيرة، خذ بيدك منها ما تريد،

(١) كلمة Moriscos يقصد بها في الوثائق الإسبانية أولئك المسلمون الذين تخلفوا في الأسلس بعد سقوطها في يد الكاثوليك، ثم أكرهوا على اعتناق الكاثوليكية. ويفسد بها هنا المسلمون، وقد أُنسب استخدام اللفظ الإسباني دون معناه المقصود، لأن الملحمة، فيما أعرف، أقدم نص بين أيدينا يستخدم مما يعين الدارسين على تأريخ الكلمة، وتبع تطورها ومراحل استخدامها.

إني أودّ أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا،
لتقول لمن هناك إنّ النصر كان حليفنا،
وإلى الملك ألفونسو الذى نفاق،
تحمل له منى هدية... ثلاثين جواداً كريماً،
من غنائم هذه المعركة التى ربّحناها،
كلها مسرّجة وذات شكائم ممتازة،
ومع كل جواد سيف معلق فى سرجه.»
فقال مينايا ألبار هانييث:
«ذلك شيء يسرّن أن أفعله!».

٤١

السيد يوفى بنذره لكثدرائية برغش

ها بين يديك ذهب وفضة خالصان،
زقّ مملوء حتى آخره لا ينقصه شيء،
وفى كنيسة مريم المقدسة فى برغش سوف أصلى ألف قدّاس،
ومازاد يبقى لزوجى ونسئى،
اللائق أمضين الليل والنهار مصليات من أجلى،
ولئن عشت فسوف يصرن سيدات ثريات.

٤٢

مينايا يرحل إلى قشتالة

كان مينايا ألبار هانييث بالغ السرور من سفارته،

والرجال الذاهبون معه اختيروا بعناية،
 وهم الآن يقدمون الشعير للخيول، فقد دخل الليل،
 واجتمع سيدى روى ديات مع أتباعه يتشاورون.

٤٣

الوداع

«أذهب أنت، يا مينايا، إلى قشتالة العظيمة؟!
 تستطيع مُحققًا أن تقول لأصدقائنا:
 لقد ساعدنا الله وانتصرنا في كفاحنا،
 وعندما تعود قد تجدنا هنا،
 فإذا افتقدتنا فالحق بنا حيث يقولون لك اتجهنا،
 بالرماح وبالسيوف علينا أن نريح الحياة!
 وبدونها، في هذه الأرض المجذبة، لا يمكن أن نعيش،
 كم أنا شديد الخوف!، ومن ثمَّ علينا أن نسرع راحلين!».

٤٤

السيد يبيع القصر للمسلمين

وكما اتفقوا. في الصباح المبكر رحل مينايا،
 وبقي القنبيطور حيث هو كان، ومعه بق الجيش.
 والأرض التي حولهم، ومنها يعيشون، قاحلة وفقيرة،
 وعلى سيدى يتجسس كل يوم
 مسلمو الحدود، ومخلوقات أخرى غريبة،

لقد استرد الملك حارث عافيته، ومعه يستعد لخدعة ما
سكان أتيكا، وأهل تبرير، وهما قرنتان متجاورتان،
ومعهم قطان قلعة أيوب، مدينة أكثر ثراء وبسطة.
وأعد السيد اتفاقاً، وحرره في رسالة :
إن أبيع لكم القصير بثلاثة آلاف مارك من الفضة.

٤٥

يبيع القصير (إعادة)

سيدي زوى دياث بلغ القصير،
ما أكثر ما دفع حينئذ لتابعيه أنفسهم !،
الفرسان والرجالة، كلاهما في الحقيقة، أصبحوا أثرياء،
لم يبق بينهم جميعاً فرد واحد مسكين،
« ومن يخدم سيدياً صالحاً يعيش أبداً سعيداً ».

٤٦

الرحيل عن القصير - السيد يتفأل بزجر الطير-

السيد ينزل في قرية بويو، فوق منت ريال.

عندما أراد سيدي أن يرحل عن الحصن،
أخذ المسلمون والمسلمات يشكون :

« أذهب أنت، يا سيدي، إذن تذهب معك صلواتنا، تسبقك !

لقد كنت معنا كريماً ونبيلاً ونحن لك من الشاكرين ».

وعندما غادر القصير سيدي، ابن ييبار،

أجهش المسلمون والمسلمات بكاء،
ورايته ترفرف فوق رأسه، ابتعد القنبيطور ذاهبا،
مرّ بأسفل نهر شلون، وتابع سيره دون أن يستريح،
وعندما عبر النهر اعترضته طيور كثيرة مبشرة،
وسرّ سكان تبرير، وفي قلعة أيوب كانوا أكثر سعادة،
وتألم أهل القصير كثيراً، فقد كان السيد لهم وفيّاً.
همز سيدي جواده ومضى بلا توقف،
حتى وصل قرية بوبو وهي فوق مدينة منت ربال،
كانت الهضبة مرتفعة، وذات مناظر خلابة،
وليس بوسع العدو أن يبلغها من أى جانب،
ثم فرض على أهل دروقة جزية كبيرة،
وأخضع سكان مولينا وكانوا على الجانب الآخر للنهر،
وجاء الدور على التيرويل، وكانت أبعد قليلا،
وأصبحت مدينة «سلفا القناة» في قبضة يديه.

٤٧

مينايا في حضرة الملك - الملك يعفو عن مينايا
ولكنه يرفض العفو عن السيد

سيدي زوى ديات المحفوظ برعاية الله !.
ألبار هانيث مينايا رحل إلى قشتالة،
وقدم إلى الملك ثلاثين حصانا من كرام الخيل،
وعندما رآها الملك سرّ بها، وغمرته ابتسامة حلوة :
« من الذى أعطاك هذه، يا مينايا، يغفر الله لك !».

- « إنه سيدي زوى دياث، من في ساعة طيبة تمنطق سيفه،
ذلك الذى نفيتَه بمخدعة ربح القصير،
وعلم ملك بلنسية بأمره، من رسالة سريعة جاءتَه،
فأمر بحصاره وأن يقطعوا عنه الماء.
فخرج سيدي من الحصن وأخذ يناضل في الميدان،
وانتصر على ملكين مسلمين في هذه المعركة،
وربح سيدي حينئذ غنائم طائلة،
واليك أيها الملك الشريف يرسل هذه الهدايا،
مقبلاً قدميك، ويديك كليهما،
طالباً منك بحق الخالق أن تصنع فيه معروفاً.»
فرد الملك : « ذلك سابق لأوانه جدًّا،
المنقُ فقد رضا الملك،
ولمَّا يمض على نَفْيهِ بَعْدُ غَيْرُ بضعة أسابيع،
ولكنى سأقبل هذه الهدايا التى انتزعها من المسلمين،
ولقد سررتُ أن يحقق السيد هذه الغنائم الكبيرة،
ولكن الآن، وقبل أىِّ شئ،، عفوتُ عنك أنت يا مينايا،
وسرُّد لك ألقابك وضياعك كاملة بلا نقصان،
وتستطيع أن ترحل، وأن تعود، لأن عفوى أصبح نافذاً،
ولكن لا أريد أن أقول لكم الآن شيئاً عن القنيطور.»

الملك يسمح للقشتالين بأن يذهبوا مع السيد

وفوق كل ما قلتُ، أودُّ أن أضيف لكم شيئاً يا أبار هانييث :

« كل الذين يرغبون في الذهب، ومن كل مملكتي،
من الشجعان الطيبين، ليساعدوا السيد،
أذنتُ لهم، ولن تصادر هذا السبب أراضيهم ».

فقبل مينايا البار هانييث يد الملك :

« شاكر ومقدّر أيها الملك، فأنت سيدي الشرعي !،
ذلك ما وافقت عليه الآن، وغدا توافق على المزيد،
وبفضل الله سنكون معك، إلى جانبك بكل عزيمتنا ».

فردّ الملك : « لندع الحديث عن هذا يا مينايا،
امض عبر قشتالة بكل حرية، ولا تخش شيئا،
اذهب إلى سيدي وانضم إليه، ولا تخش ضيقا ولا حرجا ».

٤٩

غزوات السيد خلال إقامته في بويو
مينايا مع مائة قشتالي ينضمون إلى السيد

أريد أن أحدثكم عنمن تمتطق سيفه في ساعة طيبة،

من وصل قرية بويو حيث عسكر مع رجاله،

وما عاش هنا فالمسلمون والمسيحيون

يطلقون عليها في وثائقهم اسم بويو سيدي،

ومقها فيها واصل غزواته عبر أراض كثيرة،

كل وادي نهر مارتين دفع له الجزية،

وحتى سرقسطة وصلت أخباره المثيرة،

فلم تقع من المسلمين موقع الرضا، وبطولاته أحزنتهم،

وهناك أقام سيدي خمسة عشر أسبوعا كاملة،
وعندما رأى السيد العاقل أن مينايا لما يعد،
انسحب ليلا مع كل رجاله،
ترك بُوبُو، وطوى جميع خيامه،
ويدون تَوَقَّف مضى دون لَذْرِيق إلى ما بعد مدينة تيرويل،
ولم يُلَقِ رُوى دِيَاث رحاله مستريحا إلا في غابات تيبار،
وكل الأراضي التي عَمَرَكُوا فوقها أشاعوا فيها الخراب والدمار،
وسرقسطة نفسها أرغمها على أن تدفع له الجزية»
وخلال هذه الأعمال مرّت ثلاثة أسابيع أخرى،
وعند نهايتها قدم مينايا من قشتالة،
ومعه مائتان من الفرسان، جميعهم يتمنطقون سيوفهم،
ومن المحال إحصاء الذين رافقوه من المشاة،
وعندما رأى سيدي مينايا يقترّب،
همز جواده، ولم يكذ يلقاه حتى تعانقا،
قَبَلَه في الفم ومن عينيه،
وحكى له مينايا كل ما حُدث، دون أن ينجى عنه شيئا،
وابتسم القنبيطور مبتهجا:
«شكرا لله، ولأسمائه الحسنى،
مادام اعتمادي عليك، فسيكون التوفيق رائدى، يامينايا!»

فرحة المنفيين عندما تلقوا أخبار قشتالة

يا إلهي. كم كانت غامرة فرحة الذين كانوا مع السيد،

عندما علموا أن مينايا ألبار هانييث قد قفل عائداً،
يحمل لهم جميعاً أخباراً ونحيات وإخوتهم وأقاربهم،
ورفيقاتهم أولئك اللاتي خلفوهن وراءهم.

٥١

بهجة السيد

يا إلهي... كم كان فرحاً صاحب اللحية الغزيرة!
عندما عرف أن ألبار هانييث وقى نذره بالألف صلاة،
وأنه يحمل له نحيات زوجته وابنتيه!
يا إلهي... كم كان السيد سعيداً، وكم كانت غبطته غامرة:
- «يا ألبار هانييث مدد الله في عمرك،
لأنت أعظم منا قدراً، وهكذا تؤدى المهمات!».

٥٢

السيد يجتاح أراضي القنيش

ولم يتردد من وُلد في لحظة سعيدة،
في اختيار مائتي فارس اصطفاهم بنفسه،
وبهم قرر أن يغزو ليلاً،
تاركاً وراءه أراضي القنيش القاحلة،
وانتهب جيشه كل ما حولها،
وفي اليوم الثالث عاد إلى المكان الذي انطلق منه.

حذر المسلمين

عَبْرَ كُلِّ الْأَرْضِ طَارَ الْخَبْرُ، وَمِنْ ضَيْعَةٍ إِلَى أُخْرَى،
فَحَزَنَ كَثِيرًا سَكَانَ وَشَقَّةَ وَمَثُونَ لِهَذِهِ الْمُهْزِيمَةِ،
وَعَلَى النَّقِيضِ دَفَعَ أَهْلَى سَرْقِطَةَ الْجَزِيَّةِ غَيْرِ سَاخِطِينَ،
لَأَنَّهُمْ لَا يَخْشَوْنَ ظَلْمًا مِنْ سَيْدِي، رَوَى دِيَاثُ.

السيد يغادر بويو - ويحتاج أراضي في حماية كونت برشلونة

وبكل الغنائم الهائلة التي حصلها عاد إلى معسكره،
وجمعا كانوا فرحين بما أصابوا من ثروات طائلة،
فشكروا السيد، ثم شكروا كثيرا ألبار هانييث،
ولم يستطع القائد المترن أن يكتم ابتسامته :
«أيها الفرسان.. اسمعوني، يجب أن أقول لكم الحقيقة :
من لا يغزو ويؤثر الإقامة الدائمة في مكان واحد فلن يقبض راتبه،
عندما يشرق الفجر سوف نرحل من جديد،
هيا، اطووا الخيام، وتقدموا، فقد أذفت ساعة الرحيل.»
وانطلق السيد حيث عسكر في ميناء ألوقات،
ومن هناك غزا سيدي وشقة ومنت ألبان،
في غزوة كبيرة دامت عشرة أيام،
وعبر كل الجهات شاع الخبر متواليا،
إن منى قشتالة يثير في الأفاق الرعب والدمار.

تهديدات كونت برشلونة

عُبر كل الجهات سارع الخبر.
وأخيراً بلغ مسامع كونت برشلونة.
أن زوى دياث انتهب أرضه كلها^(١)،
فكان وقع الخبر عليه سيئاً، وإحسامه بالإهانة عميقاً.

السيد يحاول عبثاً تهدئة الكونت

ركب الغرور الكونت فردّ مزهواً :
« لقد الحق بن سيدى، دياث دى يبيار أضرارا بالغة،
ولم يكن سلوكه بأفضل حالاً عندما كان فى بلاطى،
فبعد أن جرح حفيدى، تركه دون أن يُعنى به،
والآن يجتاح أرضاً فى حمايتى وتدفع لى الجزية،
أبدأ ما تحديته ولا حجبت صداق عنه،
أما وقد آذانى، فأنا له أهل ونذ».
كانت جيوشه قوية، وسريعاً تجمعت،
وجاءته جموع كثيرة تنضم إليه، من مسلمين ومسيحيين،

(١) تاريخياً لم تكن الأرض لكونت برشلونة، وإنما كانت أرض الحاجب المنذور ملك لاردة، وكذا فى تحالف مع الكونت، يدفع له الجزية، ويعيش فى حمايته، وهو ما يشير إليه الملحمة صراحة القصيدة التالية.

وجميعاً تحركوا للقاء سيدي؛ ابن بيبار المحمود.
 وقطعوا في مسيرتهم ليلتين وثلاثة أيام،
 فأدركوا سيدي قريباً من غابات تيار،
 جاءوا في حشودهم الجامعة، وبأيديهم مجردة تصوروا أنهم يقبضون
 على سيدي دون لذريق، وكل ما جاء به من غنائم وفيرة،
 وبينما كان السيد يهبط من الجبل، ليتشر عبر الوادي،
 جاءت رسالة تعلن: «لقد وصل الكونت دون رامون».
 وعندما عرف سيدي خبرها أرسل من يقول له:
 «قل للكونت رامون ألا يخشى من جانبي شيئاً،
 لن أسطو على أملاكه أبداً، فليدعني أمضى في سلام».
 ولكن الكونت ردّ عليه: «إنك لم تقل الحقيقة،
 وستدفع الآن غالباً ثمن كل ما أسأتَ إلى في البعيد والقريب،
 وسيعرف المنقّى مع من.. عليه أن ينزل!».
 وعاد الرسول يحمل الجواب، بحث جواده ليصل بأسرع ما يستطيع،
 وعرف لحظتها سيدي، ابن بيبار.
 أن طريقه الوحيد أن يخوض مع الكونت معركة فاصلة.

السيد يخاطب جنوده

«أيها الفرسان، أنقذوا غنائمكم!،
 البسوا الدروع وأشهروا السيوف،
 لأن الكونت دون رامون يريدنا أن نلقاه في معركة.

وبصحبته خلق كثير من المسلمين والمسيحيين،
ولن يدعنا في سلام إلا إذا واجهناه بالقوة،
وحتى إذا رحلنا فسوف يلحقون بنا، وإذا فلتكن المعركة هنا،
اهمزوا خيلكم، وهيئوا سلاحكم،
فهم قادمون أسفل الطريق، وقد ارتدوا عُدّهم جميعاً،
ولكن... سروجهم مهزوزة، وسياطهم واهية،
وسروجنا أثبت؛ ودروعنا سابعة،
وبمائة فارس منكم يجب أن أقهر تلك الجيوش،
وقبل أن يبلغوا الوادى أغرقوهم بفيض من السهام،
ولكل من يقتحم الصفوف منكم ثلاثة سروج خالية تنتظره.
وسيرى رامون برنجير مع مَنْ يخوض المعركة
اليوم؛ في غابات تيار؛ لكى يسلبه ما جنى من غنائم».

٥٨

السيد ينتصر في المعركة - ويستولى على سيف الكونت البتار المسمى «كولادا»

استعدوا جميعاً للمعركة عندما تحدّث سيدي؛
شهبوا سيوفهم وامتطوا صهوات جيادهم،
وفي أسفل الطريق رأوا قوّات الفرنجة قادمة^(١)،
وأخيراً عندما مسّت أقدامهم أوّل الوادى،

(١) الفرنجة Francos اسم كان يطلق على سكان قطلونية Catalonia، مقاطعة اسبانية في الشمال الشرق عاصمتها برشلونة، حتى القرن الثان عشر في المؤلفات الأندلسية، إسلامية أو مسيحية، وكان يطلق أصلاً على سكان جنوب فرنسا، وأحياناً على أى أوروب.

أمر سيدي، من وُلد في لحظة سعيدة، بالهجوم،
 فاطاعه رجاله مبتهجين، وعزائم قوية،
 توالى سهامهم ونباهم كليل تهاوى كواكبه،
 فجرحوا بعض المسلمين، وهزموا الآخرين فولّوا هارين،
 وانتصر السَّيِّد، وريح المعركة من وُلد في ساعة طيبة،
 وأسّر الكونت رامون، وفي السجن ألقى به،
 وغنم سيفه البثار «كولادا» وثمنه على ألف مارك يزيد.

٥٩

كونت برشلونة أسيرا يريد أن يتركوه يموت جوعاً

وهكذا ربح السَّيِّد المعركة وشرف لحينه،
 ثم حمل كونت برشلونة إلى خيمته،
 ونادى أتباعه المخلصين وأمرهم بمجراسته،
 وبعدها تركهم وخرج من الخيمة.
 وأخذ أتباع سيدي يتوافدون قادمين من كل جانب،
 واحمراً وجهه ابتهاجاً بما حلوا من غنائم وفيرة،
 وأعدوا لسيدي دون لذريق طعاماً شهياً.
 ولكن الكونت رامون لم يُعر شيئاً من ذلك اهتماماً.
 فأحضروا له الطعام، وتركوه أمامه،
 فأعرض عن الأكل، ورفض أن يذوق شيئاً،
 - «حرامٌ على إن أكلتُ لقمته، ولو دُفع لي كل ذهب إسبانيا،
 قبل أن أطمعها أفضل أن أخسر بدن وروحي معاً،

شيء يدفعني إليه مجرد التفكير في أن أشبه الحفاة هؤلاء انتصروا على!«.

٦٠

السيد يعد الكونت بأن يطلق سراحه

وتحدث سيدي زوى دياث، فاسمعوا جيداً ما قال :
كل أيها الكونت من هذا الخبز، واشرب من هذا النبيذ،
وإذا سمعتَ قولي رددتُ لك حرّيتك،
وإذا رفضت بقيت في الأسر مدى الحياة!.

٦١

إعراض الكونت

- «كل أنت بادون لذريق، واسترح إذا أردت،
لأن أفضل أن أموت جوعاً قبل أن أكل لقمة»
وجاء اليوم الثالث ومازال معرضاً عن الطعام؛
ورجال السيد يجمعون الغنائم؛ وتوزعها مشغولون؛
فلم يستطيعوا أن يقنعوه بأن يأكل ولو لقمة من رغيف.

٦٢

السيد يكرر وعوده للكونت ثم يطلق سراحه ويودعه

وقال السيد : «كل، كل طعامك. تناول شيئاً،
فإذا بقيت ممتنعاً فلن يتلح لك أبداً أن ترى وجوهاً مسيحية؛!
أما إذا أكلت استجابة لرغبتى،

فستصبح أنت، يا كونت برنجير، واثنان من فرسانك،
أحراراً، مطلق السراح، دون أى مقابل غير تناول الطعام». .
وما إن سمع الكونت هذا الوعد حتى انتعش :

« إذا وفيت يا سيد بما وعدت به الآن،

فسأكون بك معجباً، ولك مقدرًا، ما امتدَّت حياتي » .

- إذا كُلَّ يا كونت، وإذا ما قاسمتنى العيش والملح

فسأطلق سراحك سعيداً، أنت واثنين من رجالك،

ولكن ما خسرت في المعركة، وما رجحتُ أنا في الميدان،

لا أفكر أن أرد لك منه حتى مالا يساوى حبة خردل !،

لان الرجال الذين معى، ويقاتلون إلى جانبي ، فى أشد الحاجة إليه،

وما انتزعت منك، ومن آخرين، أدفع لهم رواتبهم،

وعلى هذا النحو تمضى حياتنا ما أراد الأب المقدس،

وما ارتضاها من غضبٍ عليه الملك ومن أرضه نفاه » .

فابتهج الكونت وطلب ماء ليغسل يديه،

فكان له ما أراد فى الحال، وبسرعة جاءوه بالماء،

ومع الفارسيين اللذين سيطلق السيد سراحهما

أكل الكونت بشهية طيبة يحسد عليها، وبأها من شهية يا إلهى !،

وإلى جانبه جلس من وُلِدَ فى ساعة طيبة،

« كونت! ... إذا لم تأكل جيداً، على النحو الذى يرضينى،

فستبقى هنا، وتعيش معى ، ولن ننفضل أبداً » .

نقال الكونت : « كما ترى، أنا أكل، أكل مسروراً وبارادق » .

ومع فارسىه أقبلوا على الطعام يزدردونه عجولين،

وسرّ سيدي، وكان معهم يرقب ما يصنعون،
 لأن الكونت دون رامون التهم الطبق فيها.
 - «إذا وافقتم يا سيدي، يمكننا أن نذهب توثاً،
 فرهم يعطونا ثلاثة جياذ وسنرحل في الحال،
 إنني منذ أصبحت كونت، لم أكل بشهية كما أكلت الآن،
 ونكهة هذا الطعام لن تُمحي من ذاكرتي أبداً».
 فأمر لهم بثلاثة جياذ، ممتازة التسريح والإعداد،
 وبملابس صُنعت من خير الجنود، وغطاء،
 وعلى هذا النحو مضى الكونت دون رامون بين حارسيه،
 وخارج خيمته، متحفزاً ودّعهم القشتالي،
 ها أنت ترحل يا كونت حراً^(١)
 واني لأشكر لكم ما خلّقت لنا من ثروات وأموال،
 وإذا تذكّرت يوماً والتهبت حمية، وفكّرت في الثأر،
 وبحثت تبحث عني فأعلمني قبلها،
 فإمّا أخذت مما لكم أكثر مما أخذت؛ أو تحملون أنتم مما عندي شيئاً.
 - «من الثأر لا تحشر شيئاً، وابق هادئاً ياسيدي،
 وأعتقد أنكم غنمتم ما يعادل جزية عام كامل على الأقل،
 أما الحديث عن المجي هنا لمهارتكم ثانية، فشيء لا أفكر فيه!».

(١) يستخدم الشاعر للتعبير عن هذا المعنى كلمة Franon وهي تعني حراً، ويمكن أن تعني قطلونيا

على ما أشرنا، وكلا العنيتين يمكن أن يراد بها.

الكونت يرحل خائفاً - ثروات المنفيين

امتطى الكونت صهوة جواده، وانطلق مسرعاً،
 ومن حين لآخر كان يدير رأسه، يلتفت وراءه خائفاً،
 كان الكونت يخشى أن يندم سيدي،
 أمرٌ لا يقدم عليه البطل، ولو بكل ما في الأرض من ثروات،
 إنه لم ينكث أبداً في عهد قطعه، أو كلمة وعدّها،
 وعندما غاب الكونت عبر الطريق عاد إلى خيمته ابن بيبار،
 فاجتمع برجال جيشه يتبادلون الحديث مبتهجين
 من الغنائم الهائلة التي ربحوها في الميدان،
 وبها أصبحوا من الأغنياء الذين لا يستطيعون إحصاء ما يملكون من أموال!

النشيد الثاني

زواج بنتي السيد

٦٤

السيد يهاجم أرض بلنسية

هنا تبدأ ملحمة سيدي ابن بيبار.
لقد سكن سيدي ميناء الوكات،
تاركا سرفسطة، مبتعدا عن أراضيها،
وخلف وراءه وشقة، وبعيدا هناك منت ألبان،
ومتجها نحو البحر المالح بدأ الحرب،
وحيث تشرق الشمس سلك طريقه،
لقد استولى سيدي على الشارقة، وأونددة والمارة،
ووقعت أرضي بوريانا في قبضته، في خاتمة المطاف.

٦٥

الاستيلاء على مريبطر

لقد ساعده الخالق. السيد الذي في السماء،
ويعون كبير منه استولى على مريبطر،
ولحظ سيدي أن عناية الله دائما ترعاه،
والدين في مدينة بلنسية جميعا منه خائفون.

مسلمو بلنسية يحاصرون السيد، والسيد

يجتمع مع رجاله - ويلقى فيهم خطابا

لم ير سكان بلنسية في اقترابه خيرا، وكانوا يخافونه كثيرا،
 فعقدوا مجلسهم وقرّ رأيهم على محاصرة السيد،
 وتحت ظلمة الليل الخالكة تحركوا نحوه، فوصلوا مع إشراقة الصبح،
 حاصروا مريبطر، وعلى مشارفها نصبوا خيامهم،
 وعندما رأهم سيدي، تعجب قائلا :

«شكراً لله الأب الروحي !

في ديارهم سبق، وسئلحق بهم ما استطعنا من أضرار،
 لقد شربنا نبيذهم، وأكلنا ما قدموا لنا من طعام،
 فإذا جاءوا لحصارنا، فبحق ما يصنعون،
 والمعركة وحدها يمكن أن تضع حدا لما بيننا من خصام،
 فلترسل بريدنا إلى من سيكونون عوننا لحظة اللقاء :
 بعضهم إلى الشارقة، والآخرين يذهبون إلى ألوكات،
 ثم يتابعون سيرهم إلى أوندة، ولا ينسون المنارة،
 ومنها إلى بريانا، فإذا أعلموا أهلها إلينا يعودون،
 حيثذ نبدأ المعركة الفاصلة مطمئنين،

إن ثقى بالله كبيرة، وأنه سيكون معنا وبارك لنا».

وما إن أشرق اليوم الثالث حتى التقوا جميعا،

ومن أولد في لحظة سعيدة تحدث إليهم :

« اسمعوني أيها الجنود، يحفظكم الله !
 منذ أن ودّعنا المسيحية الصافية،
 ولم تكن تلك رغبتنا، وكنا عليها مكرهين،
 ولكن بفضل الله كان النصر حليفنا،
 والآن فإن سكان بلنسية جاءوا لحصارنا،
 فإذا رغبت الإقامة في الأرض التي نحن عليها،
 كان علينا أن نعطيهم درسا بلا مثيل ! » .

٦٧

نهاية خطبة السيد

عندما ينصرم الليل ويزحف الفجر،
 تكون الخيل معدة والسلاح جاهزاً،
 وسوف نمضي لقتال تلك المحلة،
 منفيون نحن في أرض بعيدة،
 وهناك سنرى من الذي يستحق أن يقبض راتبه .» .

٦٨

مينايا يقدم خطة المعركة - السيد ينتصر
 في معركة أخرى فاصلة - ويسنولي على الجبيلة

اسمعوا ما يقول مينايا ألبار هانييث :
 « قنبيطور ! ... نحن ننفذ ما تأمر به،
 أعطني مائة فارس فحسب، ولا أطلب منك مزيداً،

وأنت مع الآخرين عليك أن تسبقنا متقدماً،
هاجمهم بقسوة، دون خوف ولا رحمة،
وأنا، مع المائة فارس، أفاجتهم من جانب آخر،
أثق بالله، وسريعاً فإن ساحة المعركة ستكون لنا». وأمن القنبيطور على ما قال، وكان به سعيداً،
في الصباح مبكرين جميعاً تكونون قد حملتم السلاح،
وكل واحد منهم يعرف بالدقة ما يجب عليه أن يقوم به،
ومع الفجر فإن سيدي سوف يتجه إلى المسلمين،
- «باسم الخالق، والحواريّ شنت يا قب،
اهجموا عليهم أيها الفرسان، بإرادة صادقة وعزم مكين،
أنا، زوى ديات سيدي، ابن بيبار». ورؤيت جبال خيام كثيرة تفرقع هنا وهناك،
تفاوت أعمدة الخيام وتطايرت الأوتاد،
ولكن المسلمين كثيرون، ومجاولون الثبات.
وأيضاً فإن ألبار هانميث، اقتحم المعركة من جانب آخر.
ولو أن الأمر أحزنهم، أفرّوا بالهزيمة،
وسرعة الخيل أفلت من استطاع الفرار،
فلحقوا بهم، وعندما أدركوهم قتلوا ملكين مسلمين،
وظلّوا في أثرهم حتى بلغوا أبواب بلنسية،
وكانت الغنائم التي حصل عليها سيدي كبيرة،
سرقوا كل ما في ساحة المعركة، وبعدها أخذوا يعودون،
فدخلوا مربيطر ومعهم كل ما حملوا من غنائم هائلة،

وعمّت المدينة فرحة غامرة،
ثم استولوا على الجيلة وما حولها،
وعم الخوف بلنسية، وحر أهلها فيما يصنعون،
وأخبار سيدي رن صداها في كل مكان.

٦٩

غارات السيد جنوب بلنسية

ومن جانب آخر فإن شهرته بلغت البحر.
وامتلاً السيد غبطة، وازداد جيشه فرحاً،
لأن الله ساعدهم فكان النصر حليفهم،
وأرسل فرسانه في إغارات ليلية متوالية، وليلاً كانوا يخرجون،
فوصلوا قلييرة، ثم جازوها إلى شاطبة،
وتوغلوا هابطين، حتى بلغوا سكان دانية،
فدمروا أراضي المسلمين كلها حتى البحر،
واستولوا على سلسلة جبال بني كادى، مداخلها ومخارجها.

٧٠

السيد في جبل بني كادى

عندما استولى السيد القنيطور على جبل بني كادى،
تألم سكان شاطبة، وكان أسى أهل قلييرة بالغاً،
ولم تنس بلنسية شيئاً من أحزانها.

الاستيلاء على منطقة بلنسية كلها

وعاش في أرض المسلمين، يغزو وينهب، هنا وهناك،
ينام النهار، ويمضي الليل سهران.
وليستولى على ذلك الوادي أنفق سيدي ثلاثة أعوام.

السيد يحاصر بلنسية - وينادي بالحرب بين المسيحيين

نق سكان بلنسية مرعوبين،
لا يجرءون على الخروج، وليسوا راغبين في الضال،
بيت السيد يدمر جناهم، ويلحق بهم أفدح الأضرار،
وحلال هذه الأعوام حال بينهم وبين الحصول على أى طعام،
وضح سكان بلنسية شاكين، وشاروا ماذا يفعلون،
لم يعودوا يحصلون على الخبز، من أى مكان،
وذهل كل والد عن ولده، ولم يعد الأبناء يساعدون الآباء،
ولا الصديق صديقه. لم يعد أحد يعاون في الضراء،
وضح سادة القوم فلم يعودوا يملكون رغيماً من خبز،
وماتت الزوجات جوعاً، ومات الأبناء،
كانت آلامهم مجسمة؛ وعن التخلص منها عاجزون،
فأرسلوا إلى ملك مراکش يطلبون العون،
غير أنه كان مشغولاً بحربه مع الموحدين في جبال الأطلس،

فلم يقدم لهم النصيح ولم يجيء ليكون لهم من المساعدين،
وعرف سيدى الخبر، ففاض قلبه سروراً،
وذات ليلة خرج من مريبطر سهران طائفاً.
فطلع عليه الفجر في أرض مُوتت ريال،
وأرسل من ينادى بانتصاراته في نبرة وأرجون،
وبعث إلى قشتالة برسالة :

« من يرد أن يتخلص من عمله، ويرد أن يصبح غنياً حقاً،
فليات إلى سيدى، بطل محارب راغب في القتال ». .
ولكى يُقدم بلنسية هدية إلى المسيحيين فقد ضرب عليها الحصار.

٧٣

تكرار النداء

من يُرد أن يأتي معى لحصار بلنسية،
وتعالوا جميعاً أحراراً بإرادتكم ودون إكراه من أى مخلوق،
فليعرف أنى سابق ثلاثة أيام قريباً من قناة ثيلا.

٧٤

الناس يتوافدون على المنادى - حصار بلنسية وسقوطها

ذلك ما قاله سيدى، القنبيطور المخلص،
ثم عاد إلى مدينة مريبطر، ومن قبل استولى عليها،
واعلم أن الرسل مضوا عبر كل الجهات ينادون بما قال السيد،
وانتشرت رائحة الغنائم فما تحلف أحد عن الحجى،

وآخرون جاءوا مدفوعين ببعيدتهم المسيحية الخالصة،
 وطارت أخباره وشاعت فبلغت كل الأنحاء،
 والقادمون لينضموا أكثر عدداً من الذاهين،
 وبدأت تتضخم ثروات سيدى، ابن ييبار،
 وغمره الفرح عندما رأى كثيرين يتوافدون،
 ولم يرد سيدى دون لذريق أن يمضى فى صبره،
 فتقدم نحو بلنسية مباشرة وانقض عليها،
 وضرب سيدى حولها حصاراً دقيقاً صارماً لا يفلت منه إنسان،
 لا أحد من سكانها يستطيع خروجاً أو الدخول،
 وضرب لهم أجلا لعل أشقاءهم لمساعدتهم يقدمون،
 ودام الحصار مستمراً تسعة أشهر بلا انقطاع،
 وبحجىء العاشر أحنت المدينة رأسها مستسلمة،
 يا للبهجة الغامرة تطوق سكان المكان،
 عندما استولى سيدى على بلنسية ودخل المدينة ظافراً!
 والذين كانوا بالأمس مشاة عادوا على صهوات الخيل يسرعون،
 والذهب والفضة من الغنائم ، من يستطيع عدها؟،
 وكل الذين كانوا هناك من أتباع السيّد أصبحوا أغنياء،
 وكان الخمس لسيدى دون لذريق فأمر بأن يُعزل فى مكان،
 فخصه من المال العين وحده ثلاثون ألفاً من الماركات،
 وما أصاب من الغنائم الأخرى، من يستطيع إحصاءه؟
 وغمرت الفرحة سيدى، وكل أتباعه هناك،
 عندما بدأت رايته خفاقة على القصر تداعب الهواء.

ملك إشبيلية يرغب في استرداد بلنسية

استراح سيدى، وركنت كل جيوشه إلى الهدوء،
 ووصلت رسالة إلى ملك إشبيلية تنبهه :
 « لقد استسلمت بلنسية، وليس هناك من ينقذها » .
 فسار الملك نحوها على رأس جيش عدته ثلاثون ألفاً،
 ودارت رحا المعركة وراء البستان،
 فغلبهم سيدى، صاحب اللحية المرسلة، فولوا هارين؛
 فتبعهم مطارداً حتى مدينة شاطبة،
 وعندما عبروا نهر شقر كانوا شمالاً ممزقاً،
 ضد التيار سار المسلمون، ومسرعين راحوا يعبّون الماء،
 وهرب ملك إشبيلية وفي بدنه ثلاثة جراح،
 وعاد سيدى محملاً بغنائم أخرى،
 وإذا كانت غنائم بلنسية كبيرة، عندما استولى على المدينة،
 فقد كانت غنائمه في هذه المعركة أكثر عدداً وأغلى ثمناً؛
 وقبض جنود المعركة الأخيرة، كل واحد مائة مارك من الفضة،
 فانظر إلى أى حد تزدهر أعمال الفارس الشجاع .

السيد يرسل لحيته غزيرة وكثيفة - إثراء أتباع السيد

كانت الفرحة شائعة بين كل هؤلاء المسيحيين،

الذين كانوا مع سيدى روى دياث، من وُلد في لحظة سعيدة،
ولقد نمت لحيته، واستطال شعرها،
لأن سيدى قال ذلك بفمه ولم ينسه :
«حُباً في الملك ألفونسو الذى نفاقى في هذه الأرض،
لن تمس لحيتى موسى، ولن أقص من رأسى شعرة،
وليتحدث عن ذلك من شاء، مسلمون ومسيحيون،
واستراح سيدى دون لذريق، ابن بيمار، في مدينة بلنسية،
ومعه مينايا ألبار هانييث، ملازم له لا ينفصل عن جانبه،
لقد أثروا كثيراً هؤلاء الذين أخرجوا من قشتالة منفيين،
جميعاً، في مدينة بلنسية، عوضهم خيراً القنيطور المعداد،
ولحظ سيدى أن رجاله مع ما أصابوا من غنائم كبيرة،
يودون أن يعودوا إلى أراضيهم مسرورين،
وعملاً بتصيحة مينايا أصدر السيد أوامره :
إذ كان بعض أتباعه، أولائككم الذين رحبوا معه كثيراً،
يذهبون الآن دون أن يودّعوه، ودون أن يقبلوا يده^(١)،
فسيلحق بهم أيان ذهبوا ولن يستطيعوا إفلتاً،
وسوف ينزع منهم ما أقطعهم من أرض ، ويودعون الحياة مشنوقين،
وعندما اتخذ القرار بكل ما يتطلبه من حذر واعتناء،
اختلى السيد مع مينايا البار هانييث يتشاوران :
« إذا وافق رأيكم مينايا، أود أن أحصى

(١) التابع لا يمكن أن يتحلل من تبعيته، وأن يفارق مولاه قنونا، إلا إذا ودعه مستأداً، وطلب

أن يقبل يده.

الرجال الذين هنا، أتباعي، وغنموا معي شيئا،
نكتهم جميعا في صحيفة ويصبحون مُسَجَّلِينَ؛
حتى إذا اختبأ واحد، أو غاب فلم نعد نراه،
رد ما ربح معنا إلى هؤلاء الأتباع المخلصين،
الذين يسهرون خارج أسوار بلنسية وينهضون على حراسة المدينة»
فرد مينايا: «تفكير مصيب!».

٧٧

السيد يحصى رجاله - ويتيها لإرسال هدية جديدة إلى الملك

أمر السيد بأن يحضروا جميعا في ساحة القصر،
فأحصاهم واحدا واحدا. وكلُّ يُنادى باسمه عاليا،
فكان عدد أتباع سيدي، ابن بيبار، ثلاثة آلاف وستائة من الرجال،
فر من قلبه، وغمرته الابتسامة، وتحدث قائلا:

«شكرا لله يا مينايا، ولربيم الأم المقدسة!
في قليل من الرجال خرجنا يوما من ديارنا في قرية بيبار،
ونحن اليوم أغنياء كبار، وغدا نكون أكثر غنى،
إذا كان يسرك يا مينايا، ولن يسبب لك ضيقا ما
أود أن أبعث بك إلى قشتالة رسولا حيث ضياغنا،
وإلى الملك ألفونسو، سيدي الشرعي،
فمن هذه الغنائم التي أحزناها في هذه الأرض،
أود أن أهديه مائة حصان، واخترتك لتحملها إليه،
وعنى قَبْلَ يده، ثم تقدم إليه برجاء حار،

أن يدع زوجي دونيا خمينا وبتى، يأتين معك،
 إذا فاض عفوه، وسمح لهن بأن يخرجن من هناك،
 وسوف تذهب لهن وتبلغهن هذه الرسالة :
 « يازوجة سيدى ومناته الأميرات،

لقد أمر السيد بأن تأتين معى فى رفقتى، محترمات مكرمات،
 إلى أراض بعيدة، افتتحها وغدا سيدها » .
 حينئذ قال مينايا : « مسرورا سأنفذ ما أمرت » .
 واثناء الحديث أعدت خطة الرحيل،

فأعطى سيدى ألبار هانبيث مائة من خبرة الرجال،
 يقومون على خدمته ويكونون له حراساً أقوياء عبر الطريق،
 وأعطاه ألف مارك من الفضة، يقدمها لكنيسة سان بطرس،
 على أن يعطى نصف المبلغ للشهاس دون شائجة .

٧٨

دون خرونيمو يصل إلى بلنسية

الهدايا والأخبار الجديدة أسعدت الجميع،
 ومن الجانب الشرقى جاء رجل دين كبير،
 المطران دون خرونيمو كما تدعوه الجماهير،
 رجل أديب واسع الثقافة وذو عقل حصيف،
 مطران شجاع قاتل أرضا وعلى جواد،
 ولتأييد سيدى وعونه، يمضى عبر الأرض داعياً،
 وأمنيته الكبرى أن يلتقى مع المسلمين مناضلاً فى ساحة القتال،
 فإذا أشقى غلّه طاعناً المسلمين بيديه،

فسيخفف دموع المسيحيين على امتداد قرن من الزمان،
وعندما استمع إليه سيدي رد مبتهجا:
« اسمعني يا مينايا ألبار هانييث، بحق ذلك الذي في الأعلى،
- وعندما يساعدنا الله فنحن نعرف كيف نكون من الشاكرين -
لأقيمَنَّ في أرض بلنسية مطرانية، ولأعينن مطرانا،
وفي عزمي أن أقدم المنصب هدية لهذا المسيحي التقى،
وأنت، عندما تصل قشتالة، قص عليهم ما تعرف من أخبارنا».

٧٩

دون خرونيمو يعين مطرانا

وافق هوى في نفس ألبار هانييث ما قال دون لذريق،
ومن ثم فقد تولى دون خرونيمو منصب المطران،
عُين مطرانا على بلنسية حيث يستطيع أن يصبح من كبار الأغنياء،
يا إلهي!... كم كانت بهجة المسيحيين غامرة،
فقد أصبح لهم في بلنسية سيّد مطران،
سعيدا ودّعهم مينايا ومضى.

٨٠

مينايا يتجه إلى مدينة كارون

خلف وراءه أرض بلنسية هادئة تنام في سلام،
انجه إلى أرض قشتالة مينايا ألبار هانييث،
وسندع المحاط التي نزلها، لا أود أن أعدّها لكم،

وسأل عن ألفونسو: أين يستطيع أن يلقاه،
 فعرف أن الملك ذهب إلى مدينة «سأهاجون» من قريب،
 فعادوا إلى «كاربون»: حيث يمكن أن يجده،
 كان مينايا ألبار هانييث طوال الرحلة سعيداً،
 لأنه يحمل إلى هناك كل جميل من الهدايا والهبات!

٨١

مينايا يحيى الملك

كان الملك ألفونسو خارجاً من الكنيسة بعد أن حضر القداس،
 ولما رأى مينايا ألبار هانييث في كل أبته ناداه،
 فاتجه إليه، وجثا أرضاً على ركبتيه، أمام كل الناس،
 ثم ارتقى على قدمي الملك ألفونسو لهفان شديد الألم،
 وهو يقبل يده، تحدث المحارب الريان.

٨٢

خطاب مينايا أمام الملك - غيرة غرسية أوردونييث - الملك يعفو
 عن أسرة السيد - أميراً كاريون يطمعان في ثروات السيد

شكراً، سنور ألفونسو، بحق الخالق!
 بود سيدي الماضل أن يقبل يديكم،
 أن يقبل قدميكم واليدين، فأنت سيد صالح وأهل لذلك،
 طالباً منكم أن تصنعوا فيه معروفاً وسيكافئكم الخالق عليه،
 لقد أخرجته من أرضه، وحرمته من حبك،

ومع أنه في أرض بعيدة، فإن أحواله يمكن أن تسوء،
لقد استولى على الشارقة، وعلى مدينة تحمل اسم أوندة،
وسقطت في يده المنارة، ومربط وهي أفضل الجميع،
وافتح قرية جييلة، وتقدم بعدها إلى قسطلون،
واستولى على قرية بني كادى قلعة قوية التحصين،
لقد أصبح سيّد بلنسية وكل ما حولها من القلاع والحصون،
وبنفسه أقام مطرانية وعين مطرانا، الطيب القنبيطور،
خاض خمسة معارك فاصلة، وكان من المتصرين،
وربح غنائم طائلة، ساقها إليه الخالق المكين،
وها بين يديك الدليل على صدق كل ما أقول،
مائة جواد دربر، قوية البناء والتكوين،
سروجها مهيأة، وشكائهم رائعة التذهيب،
أقبل يدكم راجيا أن تتقبلوها وأن تكونوا عنها راضين،
شاهد ولاء على تبعيته وأنكم سيده الراعى الأمين» .
ورفع الملك يده اليمنى مصلاً :

- « هذه الغنائم الهائلة التي ربحها القنبيطور،
- مبارك القديس إيزادور! - ملأت قلبي غبطة،
هي وما حقق السيّد روى ديات من انتصارات،
إن قبلت هذه الجياد، وقد أرسلها إلى هدية» .
ولكن ماسر' الملك أحزن غرسية أوردونييث :
« يبدو كما لو لم يبق في أرض المسلمين مخلوق على قيد الحياة،
هكذا يريد أن يصور لنا الأمر هذا السيد القنبيطور .
فقال الملك للكونت : « دع هذا النقاش،

فإن السيد على أى حال يخدمنى خيراً مما تفعل أنت». حينئذ تحدث مينايا فى لهجة رجل :

«إن السيد يطلب عفوكم ويرجوكم معروفاً، أن تأذنوا لزوجه، دونيا خمينا، ونثيه الأميرتين، يخرجن من الدير حيث أودعهن بنفسه، كى يذهبن إلى بلنسية ليكن مع القنبيطور الصالح». فأجاب الملك : «ذلك شيء يسرى من القلب، ولهن الأمن والرعاية، طوال الرحلة، داخل مملكتى، أحمين من كل شر، وأدفع عنهن كل أذى، وأصون عفافهن، فإذا بلغن الحدود، وتجاوزن أرضى، فعليك أنت تحميهن، ويكن فى رعايتك، أنت والقنبيطور. اسمعون جميعاً : جيشى ورجال بلاطى، لا أود أن يفقد السيد القنبيطور أى شيء، وأنتم كل الجنود الذين يعترفون به سيداً عليهم، سوف أردّ الساعة لكم كل ما صادرت من أموال وضياع، تبقى لكم ثرواتكم حتى وأنتم هناك مع سيدكم؛ وسأحميكم جميعاً من كل أذى ومن كل الأخطار، أصنع ذلك معهم لكى يخدموا سيدهم بأفضل ما يستطيعون».

فقبل مينايا ألبار هانييث يد الملك، وابتسم ألفونسو وتحدث فى طلاوة :

«أولئك الذين يودون أن يذهبوا ليخدموا القنبيطور، أذنت لهم فليذهبوا إليه بفضل الله،

نريح بالعمو أكثر عما نصيب بالغضب». حينئذ تدخل أميرا «كاربون» مناقشين : «شاعت كثيرا أخبار سيدى القنبيطور، فإذا تزوجنا من بنتيه ربمناهما معا، الأب والبنتين، ولكن تنقصنا الجرأة للحديث عما نريد، فسيدى من بيار، ونحن كلانا كونت في كاريون»، لم يبوحا لأحد بهذا الحديث، وظلت الرغبة سرا مكتوما. وودع مينايا ألبار هاننيث الملك الصالح، - «أذهب أنت يامينايا؟ أرحل في رعاية الخالق، وسيصحبك رسول من جاني، فهو نافع في مثل هذه الظروف، وإذا صحبت السيدات فاخدمهن شريفا بكل ما تستطيع، وحتى تبلغوا مدينة سالم فأنتم في حمايتي مطمئنين، وبعدها، سيكون في رعاية القنبيطور، وودع مينايا الملك، وخرج من القصر.

مينايا يذهب إلى كاردينيا ليرى دونيا خينا - مزيداً من القشتاليين مستعدين للذهاب إلى بلنسية - مينايا في برغش - ويعد اليهوديين بأنه سيدفع لهما عوضاً طيباً مقابل دينهما عند السيد - مينايا يعود إلى كاردينيا ويرحل وفي صحبته خينا - بدرو برمودث يرحل من بلنسية ليلتقى دونيا خينا - وفي مولينا ينضم إليه ابن غلبون - ويلتقيان مع مينايا في مدينة سالم

أميرا كاربون انتها في أمرها إلى قرار،
 وخرجا في رفقة مينايا ألبار هاننيث :
 « يامن تعودت أن تصنع الجميل، أضف إلى صنيعك جميلا آخر،
 انقل تحياتنا إلى سيدى ابن ييمار،
 يستطيع أن يعتمد علينا، ونحن لعونه مستعدون،
 فليتخذنا أصدقاء، ولن يخسر السيد بهذا شيئا»،
 فرد مينايا : « هذه مهمة لن تزعجنى أبداً » .
 ثم عاد الأميران، ومضى مينايا في طريقه،
 اتجه إلى كنيسة سان بطرس حيث السيدات هناك،
 وعندما رأينه قادماً كانت بهجتهم طافحة،
 وما إن وصل مينايا إلى سان بطرس حتى ترجل واتجه إلى القُدَّاس،
 وعندما انتهت الصلاة خرج مع السيدات :
 « خاضعاً، دونيا خمينا، ادعو الله أن يحفظكم من كل سوء،
 وأن يُظل برعايته بنتيك الأميرتين .

سيدى يرسل لكنّ بتحياته من هناك حيث يعيش،
 تركته مكتمل العافية، ويملك من المال الشيء الكثير،
 ويعفو من الملك، كلكنّ حرّات ومعى تستطعن الرحيل،
 سوف أمضى بكن إلى بلنسية، فهى من أملاكنا الآن،
 فإذا راكن السَّيِّد طبيبات صحيحات الأبدان،
 فسوف تغمره السعادة، وأبدأ لن تطوف بحياته الأحزان » .
 فقالت دونيا خمينا : « فلتكن إرادة الله ! » ،
 فأحضر مينايا ألبار هاننيث ثلاثة من الفرسان؛

يحملون رسالة عاجلة إلى سيدى، ونحو بلنسية تحركوا في الحال :
« أبلغوا القنبيطور، حفظه الله من كل سوء،
أن الملك عفا عن زوجه وبنتيه فأصبحن مطلقات السراح،
وماسرنا عبر أراضيه فنحن في حمايته،
وبعد خمسة عشر يوماً إذا أظلتنا رعاية الله،
فسنكون جميعاً إلى جواره، أنا وزوجه وبناته!
ومن كن يقمن على خدمتهن من سيدات ». .
وانطلق الرسل إلى وجهتهم، يؤدون ما كلفوا به من واجبات،
وبقى مينايا ألبار هانييث في سان بطرس ينتظر الجواب،
ورأى فرساناً من كل الجهات يتوافدون،
يريدون أن يذهبوا إلى بلنسية لينضموا إلى سيدى ابن ييمار،
وبرجون ألبار هانييث أن يتوسط لهم ليكونوا من تابعيه.
فرد عليهم مينايا : « سأفعل ذلك بكل ما أستطيع ». .
وبلغ عدد الراغبين في الذهاب خمسة وستين،
ومائة آخرون جاءوا معه مرافقين،
فكانوا جميعاً للسيدات الذاهبات حراساً مخلصين.
وقدم مينايا إلى الشماس خمس مائة مارك كاملة،
أما الخمسمائة مارك الأخرى، فسوف أحكى لكم كيف أنفقها :
« أنفقها مينايا على دونيا خمينا وبنتيها،
وبقية السيدات اللاتي معهن مرافقات.
فكر الطيب مينايا أنهن يجب أن يبدأن الرحلة مهيات،
فاشترى هن في برغش خير ما يوجد فيها من ثياب ومكملات،

وبغلا متخيرة وأفراسا فارهات،
ولما أصبح كل شيء بين يدي السيدات،
تياً الطيب مينايا لكي يبدأ الرحلة بلا إبطاء،
ولكن، وصل راكيل وفيداس، وعلى قدميه ارتقيا،
- «مينايا... نرجوك معروفا، أيها الفارس الوفي!
لقد ضعنا مع السيد، إذا لم تقدم لنا عوناً،
من جانبنا نتنازل عن الأرباح، إذا رد لنا رأس المال».
فرد عليهم: «عن القضية أتحدث مع السيد إن شاء الله،
لأنكم عاوتتموه، وسيعوضكم عما صنعتم فيه من جميل».
فقال راكيل وفيداس: «كانت إرادة الخالق!»
والا تركنا برغش، وذهبنا نبحت عنه حيث نلقاه».
ذهب مينايا ألبار هانييث إلى كنيسة سان بطرس،
فاجتمع إليه خلق كثير، وجميعاً تياًوا للمسير،
وتغشاه حزن عميق وهو يودع الشماس:
- «ليبك الخالق نعمة السلام، يا مينايا ألبار هانييث»
نيابة عني، قَبَّل لي يدي القنبيطور، وقل له:
«أن يجعل الدير موضع رعايته فلا ينساه ما عاش،
وإذا ما بسط علينا حمايته وهو في عنفوان السلطة والجاه،
رفع ذلك من قدر السيد القنبيطور، ماامتدت به الحياة»،
وما إن تردعا حتى تحركت القافلة للمسير.
ومعهم، في صحبتهم، رسول الملك المرافق،
وعبر أراضي قشتالة قدموا لهم الكثير من الطعام والزاد،

فقطعوا المسافة من سان بطرس إلى مدينة سالم في خمسة أيام،
 وهاهم في المدينة، وألبار هانييث، وبصحبته السيدات،
 والآن سوف أحدثكم عن حامل الرسالة من الفرسان،
 عندما بلغت أخبارهم سيدي ابن بيبار،
 خفق قلبه فرحاً، وفاض غبطة وبشراً،
 وبفمه تعبيراً عن البهجة تكلم السيد :
 «مَنْ يرسل طيباً من نفس الشيء ينتظر الجواب،
 أنت، مونيو جوستيوت أولاً، وبدرو برمودث على مستواك،
 ثم مارتين أنتولينيث، برغثي صيغ من وفاء،
 والمطران دون خرونيمو، رجل دين فريد المثال،
 اذهبوا مع مائة فارس مسلحين فقد تضطركم الحال للنضال،
 وسيكون طريقكم عبر شتمرية الشرق بدءاً،
 وبعدها تلقون مدينة مولينا فاجتازوها آمين،
 لأن حاكمها ابن غلبون رجل صديق، ومحب للسلام،
 وسيخصص لرفقتكم خلال أراضي مائة فارس آخرين،
 وإلى مدينة سالم غدوا السير ما استطعتم،
 فهناك زوجي، وبتاي، و مينايا ألبار هانييث،
 وكما قالوا لي، ستجدونهم في انتظاركم آمين،
 فإذا وصلتم فاصحبوهم إلى هنا بكل ما يستأهلن من تشریف وتعظيم،
 وسأبقى أنا في بلنسية، وامتلاكها كلفني الكثير،
 والتخلي عنها الآن ضرب من الجنون المرير،
 سأقيم هنا في بلنسية، وقد أصبحت ملكي، مجدى الثمين» .

ومأن انتهى من كلامه حتى تهبوا للرحيل.
 واصلوا السير، دون راحة، ما استطاعوا،
 مروا بشتتمة الشرق، وبعدها توقفوا في «فرونشالس».
 وفي اليوم التالي بلغوا «مولينا» حيث ألقوا عصا التسيار،
 وعندما عرف ابن غلبون المسلم أنهم على وشك الوصول،
 خرج للقائهم بكل حفاوة وترحاب :
 «أنتم أتباع صديق الحميم والشرعى،
 ألا فاعلموا أن وجودكم لا يضايقنى، على العكس يجلب لى السرور».
 فرد مونيو جوستيوث، حالا دون انتظار :
 «سيدى يحببكم، ويطلب منكم أن تساعده،
 بمائة فارس يود أن توفروهم فى الحال،
 وزوجه وينتاه فى مدينة سالم منتظرات،
 ويود أن تذهب إليهن وتأتى بهن،
 ثم ترسل بهن إلى بلنسية محروسات».
 فرد ابن غلبون : «سأنفذ ما تريدون».
 وفى تلك الليلة زودهم بقدر هائل من الزاد والطعام،
 وفى صباح اليوم التالى تهبأت القافلة للسير،
 وإذا كانوا قد طلبوا منه مائة فارس فقد رافقهم فى مائتين،
 فعبروا جبالا عالية، صعبة المسالك والمنحدر،
 حتى انتهوا إلى وادى «ماتا دى ترانث»،
 دون أن يمسه عبر الطريق طائف من خوف،
 فلما بلغوا سهول «أربو خويلو» تهبأوا للنزول،

وفي مدينة سالم كانوا لكل طارىء مستعدين،
وقد ارتعب ألبار هانييث عندما رأى الجنود المسلحين،
وأرسل اثنين من فرسانه ليعودا له بمحققة الحال،
ولم تبطء بهم العودة، وإنما فرحين قفلوا راجعين،
وقد بقى واحد مع القادمين، وعاد الثاني إلى ألبار هانييث :
- «إنها قوات القنبيطور، عنا جاءوا يبحثون،
هناك، كما ترى، بدرو برمودث على رأس الركابين،
وأيضا مونيو جوستيوث، أحد الأصدقاء المخلصين،
و مارتين أنتولينيث فارس برغشى،
والمطران دون خرونيمو رجل الدين الوفي،
ثم القائد ابن غلبون على رأس جيشه القوي،
جاء تكريما لسيدى، ومبالغة منه في التشريف والتعظيم،
يتحركون جميعاً وحدة متكاتفه، وقريبا يصلون.
حينئذ قال مينايا : « إلى صهوات الخيل أيها الفرسان،
علينا أن نخرج للقائهم مسرعين بلا تأخير»،
وتقدم في مائة فارس عليهم جميعا مظاهر الثراء،
على صهوات خيل مطهمة ، مغظاة بالخز والديباج،
سوائف في مقدمها، ترن أجراسها، ويتدلى منها الشعار،
في أيديهم السهام، وفوق رؤوسهم تخفق الرايات،
أراد ألبار هانييث أن يشعر الآخرين كم هو قوى،
وكيف خرج من قشتالة مع هؤلاء السيدات،
الذين في المقدمة كانت مهمتهم أن يكتشفوا الطريق،

وما لبثوا أن امتشقوا سيوفهم وبها راحوا يلعبون،
 وفي بهجة غامرة مروا قريبا من نهر شلون،
 وجاء الآخرون لمرؤا أمام مينايا إظهارا للولاء،
 ووصل ابن غلبون ونظر إليه متأملا،
 وامتلا له بابتسامة عريضة، ثم مد يده مسلما،
 وقبله في كتفه جريا على الشائع المألوف من العادات :
 «يوم سعيد، لأن رأيتك فيه.. مينايا ألبار هانييث،
 وأنت معك بهؤلاء السيدات، ويهن ازددت شرفاً،
 فهن : زوجة السيد المحارب وبتاه الشريعتان،
 جميعاً لكم احترامنا، هذا قدر السيد وحظه،
 حتى ولو كنا لانحبه، فنحن عن إلحاق الضرر به عاجزون،
 وهو معنا، يشاركنا قدرنا، في الحرب أو السلام،
 وغيبى من لا يعتقد أن ذلك هو الحق، وما سواه هباء».

٨٤

المسافرون يستريحون في مدينة سالم - ثم يرحلون منها إلى
 «مولينا» - ويقتريون من بلنسية

وضحك ألبار هانييث مينايا من أعماق قلبه :
 يا ابن غلبون، إنك لصديقه في السراء والضراء،
 وإذا أراد الله ووصلت إلى السيد، ورأيت ثانية بنفسى،
 فكل ما صنعتُه من أجله لن يضيع هباء،
 أما الآن، فهيا نسترح ، فقد أعد لنا الرفاق العشاء».

فرد ابن غلبون: «شكرا على ما وعدتم،
وقبل أن تمر ثلاثة أيام سارده لكم مضاعفا».
ثم دخلوا مدينة سالم، فانتهت المسئولية إلى مينايا،
كانوا جميعاً شاكرين ما قدم لهم من خدمات ورعاية،
ثم أمر رسول الملك المرافق لهم أن يعود من حيث جاء،
وأحسن سيدي بارتفاع قدره وهو مقيم في بلنسية،
أدرك ذلك مما حمل أتباعه من مدينة سالم من زاد وطعام،
لمينايا لم ينفق شيئاً، وكل ما احتاجوا إليه تكفل به الملك،
وانصرف الليل، وجاء وراءه الفجر متعباً،
سمعوا القداس أولاً وبعده امتطوا صهوات الخيل مسرعين،
ودعوا مدينة سالم، ثم اجتازوا نهر شلون،
واتجهوا نحو «أربوخوبلو» وصعدوا مضوا إليها جاهدين،
ثم طووا وادى ترانت في زمن يسير،
حتى وصلوا مدينة مولينا حيث يحكم ابن غلبون،
والمطران دون خرونيمو مسيحي صالح ذو صفحة بيضاء،
ليل نهار يقوم على رعاية السيدات،
وعلى يمينه فارس شجاع دائماً يحمل السلاح،
ومعه، في رفقته، مينايا ألبار هانيث،
سريعاً دخلوا مدينة «مولينا» وفيها نزلوا قصرأ فخماً رائع التأنيث،
وقام ابن غلبون المسلم على قراهم فهياً لهم ما يريدون،
يطلبون كل ما أحبوا فيأتيهم بلا تقصير ودون تأخير،
وزاد فأهداهم حدوات جديدة لخيولهم.

يا إلهي! .. كم بالغ في تشریف مینایا والسيدات،
 فرافقهم بنفسه حتى مدينة بلنسية، ليكون من القائمين على راحتهم،
 وودعهم الحاكم المسلم ورفض في إصرار أن يقبل شيئاً،
 جاءوا تلفهم البهجة، وتسبقهم الذكريات السعيدة،
 وصلوا قريبا من بلنسية، على بعد ثلاثة أميال معدودة،
 وإلى سيدى، من تمنتق سيفه في ماعة طيبة،
 بعثوا إليه رسولهم في داخل بلنسية.

٨٥

السيد يرسل رجاله للقاء القادمين

كان سيدى يتوهج بشرا، أكثر من أى يوم مضى،
 لأن أحب الأشياء إلى قلبه، أصبح أقربها إليه،
 فأرسل مائتي فارس خرجوا مسرعين،
 لاستقبال مینایا، والسيدات الموقرات.
 وبق هو في بلنسية حارساً ومراقباً.

٨٦

دون خرونيمو يسبقهم إلى بلنسية ليعد خطة الاحتفالات -
 -السيد يخرج للقاءه - ثم يدخلان المدينة معا

كل هؤلاء الفرسان استقبلوا مینایا،
 والسيدات، والبنتين، وكل الدين لهم مرافقين،
 وأمر سيدى القائمين على شئون بيته،

أن يقوموا على حراسة القصر والقلاع الأخرى العالية،
 إلى جانب كل الأبواب، ومخارج المدينة ومدخلها،
 وأن يهَيِّأوا له الفرس ببيكا وغنمها من قريب،
 من ملك إشبيلية، وقد انتصر عليه في معركة فاصلة،
 ولَمَّا يجربه سيدي بعد، من تنطق سيفه في لحظة سعيدة،
 أهو عصَى الشكيمة أم ذعن القيادة، .
 وعلى أبواب بلنسية، مطمئنا كامل الأمان،
 أخذ أمام زوجه وبتيه يلعب بال سلاح،
 وفي احتفال مهيب، استقبلت المدينة السيدات،
 وكان المطران دون خرونيمو يتقدم الجميع
 مترجلا عن حصانه متجها إلى مذبح الكنيسة،
 حيث يوجد أولئك الذين أعدهم يوما على مهل من رجال الدين.
 فارتدوا عبا، وهم، وحملوا صلبانهم، وكانت من الفضة،
 ثم خرجوا لاستقبال السيدات وهينايا،
 وحينئذ سارع من وُلِدَ في لحظة طيبة،
 فارتدى عباءة حريرية سابغة بدت لحيته معها أكثر وضوحا،
 وأخرجوا له فرسه ببيكا، مسرجا، كامل التسيريح،
 فامتطاه السيد، حاملا سلاحه من أقواس وسهام،
 وباسم فرسه ببيكا تحرك،
 وقام بعرض ألوان من الفروسية معجزة،
 حتى إذا انتهى ترك الحاضرين في دهشة غارقين،
 ومن ذلك اليوم فإن «بيكا» نال شهرة واسعة في كل إسبانيا، .

وعندما انتهى من عرضه ترجل سيدي،
ثم اقترب من زوجه، ومن بنتيه، وهما عنده أثيرتان،
وما إن رآته دونيا حينما حتى ارتمت على قدميه :
« شكرا يا قنبيطور، يا من تمنطقت سيفك في لحظة سعيدة،
لقد حررتني من أشياء كثيرة، سيئة ومخجلة،
هاأنذا بين يديك سيدي، أنا وستاك المحبوتان،
بفضل الله وفي رعايتك سينشآن، صحيححتين مهادبتين»،
واحتضن السيد زوجه ثم بنتيه،
ومن السرور الغامر، والبهجة الطافحة، بكت عيناه،
وجنوده يتأملونه وهم جميعا مثله فرحون،
بعضهم يتبارون بآنسلاح وآخرون يدربون على تحطيم القلاع،
اسمع ما قال من تمنطق سيفه في لحظة سعيدة :
« أنت، يا دونيا حينما، زوجي العزيزة الشريفة،
ويابنتي المحبوتين، أنتن ملء القلب والروح،
ادخلن معي بلنسية، حيث بيتنا هناك» .
فقبلت الأم والبنتان يد السيد،
وفي حفل باذخ وتشريف كبير، دخل الثلاثة بلنسية.

السيدات يتأملن بلنسية من شرفات القصر

انجه سيدي مع السيدات الثلاث إلى القصر،
وهناك صعد بهن إلى أعلى مكان فيه،

حيث تستطيع العيون أن ترشح عبر كل الجهات،
يتأملن بلنسية ، وما عليه المدينة من امتداد،
فإذا اتجهن إلى جانب آخر فالبحر هناك،
ونظرن إلى البساتين، كبيرة وجميلة ومخضرة،
وكل ما فيها تمتع يشيع السرور والبهجة،
ثم رفعن أيديهن إلى السماء، واتجهن إلى الله شاكرات،
وقد منحهن هذه الثروات، وكل ما عنده من طيبات،
وسيدى ورفاقه في قبة الصفاء والبهجة،
لقد انهزم الشتاء، وشهر مارس على الأبواب،
والآن أود أن أقول لكم شيئاً عما يجري هناك وراء البحار،
عن الملك يوسف بن تاشفين، وهو في مراكش مقيم.

٨٨

ملك مراكش يجيء ليحاصر بلنسية

غضب ملك مراكش من سيدى دون لذريق :

«لقد زج بنفسه في أراضى،

ولا يريد أن يقر بفضل لأحد غير المسيح» .

وأمر ملك مراكش هذا بحشد الجيوش؛

واجتمع له من رجاله خمسون ألفاً مسلحين،

اتجهوا إلى البحر واحتشدوا في السفائن متاهين،

قاصدين بلنسية بحثاً عن سيدى دون لذريق،

وأدركت السفن الشاطىء، فهبطوا البر واثين.

اتجهوا إلى بلنسية، وكان السيد قد استولى عليها من قريب،
 نصبوا خيامهم، وعسكروا، جندا من روح القتال مجردين،
 أنباء وصولهم بلغت سيدي حالا بلا إبطاء ودون تأخير.

فرحة السيد عندما رأى جيوش ملك مراکش - خوف خمينا

«شكرا لله، الأب الروحي!

كل ما أملك من خير هو الآن بين ناظرى،

بجهد وتعب رجعت بلنسية، وهى الآن ملكى، بين يدي،

لن أبرحها إلا جثة هامدة، ميتا فقد الحياة،

بق أن أشكر الله، ومريم المقدسة

على أن زوجى وبتنى، معى هنا إلى جوارى،

لقد جاء الحظ يبحث عنى من بعيد، من وراء البحار،

على أن أحمل سلاحى دوما، دون تفريط أو إهمال،

وسترى زوجى وبتناى كيف تكون الحرب، كيف يكون النضال،

ويعرفن كيف نعيش فى هذه الأراضى البعيدة، ونحمى الديار،

ويتاملن بأنفسهن كيف نشق من أجل لقمة العيش، وكيف نتزع الحياة».

فأمر زوجة وبتنيه بأن يصعدن إلى القصر، إلى أعلى مكان فيه،

وفى نظرة واحدة رأين كل الخيام،

- «ياسيد، ما الذى أرى هناك، يحفظك الله».

- «يازوجتي الشريفة، لا تدعى الألم يسحقك،
ما هنالك ثروات رائعة وكثيرة تنتظرنا،
لقد وصلت من قريب، ويريدون أن يهدوك شيئا عظيما،
لكي تزوجي بنتيك هنا أحضروا لك ما به تجهزين العرسان».
- «شكرا لك سيدى، وشكراً للأب الروحى»،
- «يازوجى، اثق في القلعة لا تفارق الحصن،
لا تجزعى، عندما ترينى أناضل في ساحة القتال،
فبفضل الله، وأمه مريم المقدسة،
سيمتلئ القلب شجاعة، لأنكن أمامى ترقبئنى،
ويعون الله، المعركة لنا، والنصر حليفنا».

٩١

السيد يقوى من عزائم زوجه وينتبه - المسلمون يهجمون
على ضواحي بلنسية

نُصبت الخيام، وتسربت أشعة الفجر،
وضجت الطبول، ضجت بقرع صاحب مرتفع،
وابتهج سيدى قائلا: «ياله من يوم عظيم!»،
وارتعبت زوجه وأوشك قلبها أن يقفز من بين الضلوع،
والسيدات وابتهن، تغشاهن خوف مريع،
فئذ ولدن لم يسمعن قرعا كقرع اليوم يخرق الأذان،
وظالت لحية السيد، الطيب القنبيطور:
«لا تدعن الخوف يبلغ منكن فالיום لنا على أى حال،

قبل خمسة عشر يوماً، إذا شاء الخالق القدير،
 سننتصر في المعركة وبين أيدينا ستكون تلك الطبول،
 لَكُنْ ساحضرها، لترين بانفسكن كيف تكون،
 ثم نقدمها للمطران خرونيمو هدية من المقاتلين،
 ليعلقها في كنيسة القديسة مريم، أم الخالق،
 نذر أخذه على عاتقه السيد القنبيطور،
 سرت السيدات، وبدأ الخوف يتشع عنهن،
 ونحرك مسلمو مراكش في عزيمة صادقة،
 فاجتاحوا ما حول بلنسية من حدائق غير خائفين.

٩٢

هجوم مباغت للمسيحيين

لقد رأهم الرقيب، وبدأت تدق الأجراس،
 فأخذت عدتها جيوش روى دياث،
 وفي حية صادقة تسلحوا، ثم اتجهوا إلى خارج المدينة،
 وعندما التقوا مع المسلمين انقضوا عليهم بسهولة،
 طردوهم عن الحدائق، ومزقوا صفوفهم،
 وما إن غربت الشمس حتى قتلوا خمس مئة كاملين.

٩٣

خطة المعركة

استمروا يلاحقونهم حتى الخيام،

لقد حققوا بنيتهم كاملة وبدءوا يعودون،
لكنهم خلفوا وراءهم ألبار سلفادورث أسيراً هناك،
وعاد مع السيد، الذين أكلوا عيشه وشاركوه الطعام،
لقد رأى كل شيء بعينه، لكنهم أخذوا يقصون له ما كان،
وكان سيدي مبتهجا، فرحا بما يصنعون :
« اسمعوني أيها الفرسان، على هذا النحو لا يمكن أن تسير الأمور،
لقد كان يوما رائعا، وغدا سيكون أفضل منه،
غدا، قريبا من مطلع الشمس، عليكم جميعا أن تحملوا السلاح،
ثم يمنحكم البركة دون خرونيمو المطران،
ويصلّي بكم القدّاس، وبعدها تسرعون بالركوب،
نسرع إليهم، ونهاجمهم، فمن المحال أن يبقى الحال على هذا المنوال،
باسم الخالق، وحوارته شنت ياقب،
من الخير أن نتصر عليهم، قبل أن يأتوا فينتزعوا منا لقمة العيش ». :
حينئذ أجابوا جميعاً : « سنفعله راغبين عازمين ». :
وردّ ميثايا، إذ لم يستطع على الحديث صبرا :
« أما وأن هذه رغبتك، فلتأمرن بشيء،
أعطيني مائة فارس ومعهم سترى كيف يكون القتال،
فإذا هاجمت في الوسط، فسأهاجم أنا من الخلف،
في جانب، أو في جانبيين، وسوف يساعدنا الله ». :
فردّ عليه السيد : « اعتمد على عزيمتي القوية » .

السيد يتنازل للمطران عن الضربة الأولى

النهار يسلك طريقه خارجا، والليل يتأهب للدخول.
 وبينما الجنود المسيحيون يأخذون أهبتهم،
 في الساعة الثالثة ليلا، قريبا من الفجر،
 بدأ المطران دون خرونيمو يرتل القُدَّاس،
 وهم يستمعون إليه ثم منحهم بركاته:
 «مَنْ يَمِتْ مِنْكُمْ مَقَاتِلًا وَجْهًا لَوْجِهِ،
 أَغْفِرْ لَهُ ذَنْبِهِ، وَتَسْكُنْ رُوحَهُ مُسْتَقِرَّةً فِي جِوَارِ اللَّهِ،
 وَأَنْتِ يَا سَيِّدَ، دُونَ لَذْرِيقٍ، يَا مَنْ فِي سَاعَةِ طَيِّبَةٍ تَمْنَطُكَ سَيْفُكَ!
 سَوْفَ أُرْتَلُ لَكَ الْقُدَّاسُ فِي نَفْسِ هَذَا الصَّبْحِ،
 وَأَطْلُبُ مِنْكَ فَضْلًا، وَأَنَا وَاثِقٌ أَنْكَ سَتَعْطِينِي إِيَّاهُ،
 أَنْ تَكُونَ الطَّعْنَاتِ الْأُولَى مِنْ سَيْفِي، وَيَيْدِي أَوْجِهَا».
 فقال القنيطور: «لك ما طلبت!».

المسيحيون يخرجون إلى المعركة - هزيمة يوسف - غنائم لا تحصى
 - السيد يحيى زوجه وبنتيه - دوطة للسيدات اللاتي مع خينا -

توزيع الغنائم

خرجوا جميعاً مسلحين من تحت أبراج كوازتو،
 سيدي وتابعوه أحسنوا تنظيم أنفسهم،

بعضهم بقى على الأبواب مدحج السلاح،
 وفي رتبة واحدة قفز سيدى على فرسه بييكا،
 جيد التسريح، مزينا بالعقود والأجراس،
 ثم رفعوا رايتهم وخرجوا مغلين بلنسية وراءهم،
 في رفقة سيدى بلغوا أربعة آلاف غير ثلاثين،
 ليهاجوا شجعاناً خمسين ألفاً من الأعداء مقاتلين،
 بينا مينايا، وألبار ألبارث، اقتحموا المعركة من الجانب الآخر،
 ورجوا الله حيثئذ أن يكون النصر حليفهم،
 وقد حارب سيدى بالسهم فلما نفذت ضارب بالسيف.
 فقتل مسلمين كثيرين لم يحصهم أحد،
 وعلى امتداد ساعده جرى الدم ساخناً، وعند الكوع أخذ يتساقط،
 وطعن الملك يوسف بن تاشفين ثلاث طعنات،
 لكن الملك المسلم همز جواده وأسرع تاركاً ساحة القتال،
 فالتجأ إلى مدينة قليلة، في قلعة بها ترف القصور،
 فطارده سيدى ابن بيبار، حتى بلغ هناك،
 ومعه، في رفقته، جمع من رجاله المخلصين،
 ثم قفل راجعاً من ولد في ساعة طيبة،
 طافح البشر بما حاز من غنائم وثروات،
 وعرف قيمة ما يساوى فرسه كله من الرأس حتى الذيل!
 وكل هذه الغنائم الهائلة أصبحت الآن بين يديه،
 ومن بين الخمسين ألف مسلم الذين خاضوا المعركة،
 لم يستطع أن يفلت هارباً غير مائة وأربعة رجال،

ثم أهل جنود سيدي يسرقون ما في ساحة القتال،
ومن الذهب والفضة فحسب أصابوا ثلاثة آلاف مارك،
أما الغنائم من الأشياء الأخرى، فإحصاؤها كان من العسير،
كان سيدي فرحاً، وشاركه فرحته كل تابعيه،
كان الله معهم، وبفضله انتصروا في لحظة اللقاء،
وعندما رأى السيد أن الهزيمة حاقّت بملك مراکش،
ترك هناك ألبار هانييث يحصى ما ربجوا من غنائم،
وقفل راجعاً إلى بلنسية على رأس مائة فارس،
منحياً الكوفية عن وجهه، نازعاً الخوذة عن رأسه؛
ممتطياً صهوة فرسه ببيكا، شاهر أ سيفه في يده،
فأسرعت السيدات للقاءه، وكن واقفات في انتظاره،
وأمامهن توقف سيدي، دون أن يرسل لفرسه العنان :
« أمامكن أنتن، أستشعر التواضع، ثروة هائلة ما غنمناه،
وما عشتن في بلنسية سيكون النصر حليفي في الميدان،
هذه إرادة الله، ومعه كل القديسين،
ما إن وطئت أرض بلنسية، حتى ساق إلينا ما ترين من أموال،
انظرن، سيفي يقطر دماً، وحصان يتصب عرقاً،
وبمثل هذا نتصر على المسلمين في ساحة القتال،
انجهن إلى الخالق داعيات كي يمد في حياتي وبهني المزيد من الأعوام،
سوف أدفع بكن إلى المجد، ولتقبيل أيديكن سيأتى رعايا كثيرون،
ذلك ما قال سيدي، ثم ترجل عن حصانه.
وعندما رأيته ترجل عن جواده، واستوى واقفاً على قدميه،

السيدات، وبتاه، وزوجه، سيدة من الفضليات،
 جميعاً جنون أمام القنبيطور خاشعات :
 « نحن شاكرات لأفضالك، مدّ الله في حياتك سنوات وسنوات ». .
 وحوله محيطات به، دخلن القصر مهلات،
 وعلى الأرائك الغالية معه استوين جالسات مستريحات.
 - « يا زوجتي، دونيا خمينا ألم تدعى لي به ؟
 وهؤلاء السيدات اللاق جئن معك، وعرفن كيف يقمن على خدمتك،
 أود أن أزوجهن بالمتازين من توابعي،
 وكل واحدة منهن سأعطيها مائتي مارك كاملة،
 ولكي يعرفوا في قشتالة، على من كن يسهرن خادومات،
 قضية بناتك سندرسها على مهل في أناة »،
 ونهضن جميعاً واقفات، وقبلن يده راضيات،
 وشاعت الفرحة كبيرة وشاملة بين ما في القصر من أبهاء وقاعات،
 على حين ظلّ مينايا ألبار هانييث، بعيداً في ساحة القتال،
 مع عدد من رفاقة، يحصون الغنائم ويسجلون،
 ما بين خيام وسلاح وملابس غالية،
 أشياء كثيرة ربحوها تتجاوز ما يحتاجون،
 وفضلا عن ذلك أود أن أحكى لكم عن أغرب ما ربحوه :
 « أعداد هائلة من الخيل كانوا عن حصرها عاجزين،
 لأنها مرسلّة تجرى، وليس هناك من يأخذ بزمامها،
 والمسلمون في تلك الأرض غنموا شيئاً،
 ورغم كل هذا فإن القنبيطور المعداد،

كان نصيبه من خيرة ما أصابوا ألف جواد،
وعندما رأى سيدي أن حظه من الغنائم كان هائلاً،
أدرك متاكداً أن بقية أتباعه بما قبضوه راضون،
ما أكثر الخيام المزينة التي ربحوها ومعها العمدان، رائعة الصنع،
ربحها سيدي، ومع كل تابعيه،
وكانت خيمة ملك مراکش أروع الخيام صنعة،
والأعمدة التي تنهض عليها مُحلاة بالذهب،
فأمر سيدي القنبيطور المعدود:
«بأن تترك منصوبة، وألا يمسه مسيحي،
«خيمة كهذه جاءتنا من مراکش البعيدة،
أريد أن أرسلها إلى الملك ألفونسو القشتالي،
فيصدق ما بلغه من أخبار بأن سيدي غنم شيئاً».
ثم دخلوا مدينة بلنسية حاملين كل هذه الغنائم.
والمطران دون خرونيمو، رجل دين ومقاتل شجاع،
وظامء إلى الدماء، كان يقاتل في المعركة بكلتا يديه،
ولكثرة ما قتل، ضاع من ذاكرته عدد من صرع من المسلمين،
وبالمثل كان نصيبه من الغنائم وفيراً غير محدود،
لأن سيدي دون لذريق، من ولد في لحظة سعد،
أعطاه فوق نصيبه عشر ما خصه من الغنائم كقائد.

فرحة المسيحيين - السيد يرسل هدايا جديدة إلى الملك

في بلنسية، كل المسيحيين أصبحوا فرحين.

ربحوا أموالاً طائلة، وعديداً من الخيل والسلاح،
 وفرحت دونيا خمينا، وبتاها الأميرتان.
 وكل السيدات الأخريات، أصبن الزواج مع الغنائم،
 وسيدى الطيب، لم يتأخر في السؤال:
 «أين أنت أيها الرجل الشجاع؟ تعال إلى هنا يا مينايا،
 ما أصابك من الغنائم لن يسألك عنه أحد،
 أما الخمس الذى يخصنى فسوف أقول لك مخلصاً:
 «خذ منه ما تريد، خذ ما لك رغبة فيه،
 وغداً، مع إشراقة الفجر، عليك أن ترحل بلا تأخير،
 ومعك الخيل التى أصبتها فى خمسى مما غنمنا فى الحرب،
 كلها مسرجة، تتدلى منها سيوفها وشعاراتها مزينة الأرسان،
 حُباً فى زوجى وسنى العزيزتين.
 فقد تركهن بمضين إلى حيث هن راغبات،
 وهاته المائتا فرس كهدية له ليست قليلة،
 وحتى لا يتحدث الملك ألفونسو بسوء عمن يحكم فى بلنسية».
 وأمر بدرى برمودث بأن يرافق مينايا فى رحلته،
 وأن يصحب معه مائتى رجل من خيرة المقاتلين،
 أبلغوه نحيات السيد، وأنه يقبل يديه،
 ومن آخر معركة ربحها سيدى وجنى منها هذه الغنائم،
 يرسل لكم مائتى فرس هدية،
 وأنتى سأخدمه دائماً ما امتدت بى الحياة».

مينايا يحمل الهدية إلى قشتالة

لقد خرجوا من بلنسية، وتبأوا للرحيل،
كانوا يحملون غنائم هائلة، عليهم أن يجرسوها يقظين،
واصلوا السير ليل نهار، دون أن يتوقفوا مستريحين،
عبروا سلسلة الجبال، وأراضى أخرى تفصلهم عن قشتالة،
فلما وصلوا بدأوا يسألون: عن الملك دون ألفونسو.

مينايا يصل إلى بلد الوليد

عبروا سلاسل الجبال، والوهاد والمياه،
ثم وصلوا إلى بلد الوليد، حيث الملك هناك،
فأرسلوا له من قبلهم برمودث و مينايا،
لكى يأمر باستقبال الوافدين،
يحملون له هدايا سيد بلنسية.

الملك يخرج لاستقبال أتباع السيد - غيرة غرسية أوردونييث

كان الملك فرحاً كما لم يُر يوماً،
فأمر فرسانه بأن يمتطوا صهوات خيلهم بأسرع ما يستطيعون،
وعلى رأس جنده سار الملك واسع الخطو،
ليستقبل رسل من وُلد في ساعة طيبة،

وأميراً «كاربون» كانا للعلم أيضاً في المقدمة،
 ثم الكونت غرسية خصم السيد اللدود،
 وما سرّ بعضهم أثار حسرة في نفوس الآخرين،
 وعلى مرأى البصر كان رجال من وُلد في ساعة طيبة،
 وبدوا كما لو كانوا محلة، وليسوا مجرد رجال مُرسلين،
 وما إن رآهم الملك ألفونسو حتى صلّب مرات،
 وفي نفس اللحظة تقدم مينايا و بدرو برمودث،
 ترحّلاً عن فرسيهما، واستويا على الأرض واقفين،
 كلاهما ركع أمام الملك ألفونسو تشريفا،
 قبّلا الأرض بين يديه أولاً، وأتبعها ققبلا منه القدمين،
 - «شكراً، ياملك ألفونسو، لأنت ملك شريف،
 من أجل سيدي القنبيطور، نحن هنا جميعاً نقبل اليدين،
 إليكم يتوجه منادياً سيدي، فتقبلوه واحداً من رعاياكم،
 السيد يقدر كثيراً ما أضفيم عليه من تشريف،
 من أيام قليلة، أيها الملك، انتصر في معركة،
 على ملك مراكش، وباسم يوسفت جميعاً نناديه،
 ومزق جيشه في ساحة المعركة، وتبلغ عدته خمسين ألفاً،
 الغنائم، وما ربحنا، بلغت حداً فاق ما نريد،
 وأصبح كل أتباعك المخلصين أغنياء،
 وأرسل لكم مائتي فرس، ومعها يقبل منكم اليدين».

فقال الملك دون ألفونسو: «سوف أتقبلها ممنوناً،
 وأشكر سيدي على ما أرسل لي من هدايا،

وسياتى اليوم الذى يتلق فيه مكافأتى». وشكروه كثيراً على رده، ثم قبلوا يديه، تألم الكونت دون غرسية وفاض غضباً، ومع عشرة من أقربائه انتحوا جانباً يتهامون : «أدهشنى أن يدرك السيد هذا الشرف العالى، وهو بما حاز من تشريف وتقدير أصبح نداءً لنا، يقهر الملوك بلا جهد فى ساحة المعركة، ويستولى على كل خيولهم كما لو كانوا جثثاً من الموت، وأعماله هذه ضدنا، تقلل من قدرنا».

١٠٠

الملك يظهر حسن نيته نحو السيد

وتحدث الملك دون ألفونسو فاسمعوا ما قال : «شكراً للخالق، وللسنيور القديس سان إسيڤور، على المائتى جواد التى أهدانيها السيد، وفى قادم الأيام يستطيع أن يقدم لمملكتى المزيد من الخدمات، لك أنت، يا منيايا ألبار هانييث، وليڤيرو برمودث، وقد جئتم إلى هنا، أمر بأن تقدم لكم كسوة من غالى الثياب، وبوسعكم أن تأخذوا كل ما تحتاجون من سلاح، وهكذا فى مظهر فخم يمكنكم أن تلقوا سيڤى روى دياث، وتنازلت لكم من الخيل عن ثلاثة، فخذوها من هنا، لى إحساس داخلى، وفى أعماق صوت يصيح : «كل هذه الأحداث سوف تنتهى إلى غاية سعيدة».

أميرا كاربون يفكران في الزواج من بنتى السيد

قبلوا جميعاً يديه ثم دخلوا يستريحون،
 وأمر الملك بأن يقدم لهم من زاد وطعام وقرى ما يحتاجون.
 عن أميري «كاربون» أود أن أحكى لكم شيئاً،
 ثرثرتها معروفة، ووحدهما بعيدا بدأ يعلقان،
 «أخبار السيد ويطولانه كل يوم في ازدياد،
 فلنطلب منه يدى بنتيه زوجتين لنا،
 زواج نزداد به شرفاً، ويعلى من قدرنا مع الأيام».
 ثم ذهبوا معا إلى الملك ألفونسو يفصحان له عما يريدان.

الأميران يجعلان الملك هو الذى يتولى الزواج - الملك يطلب
 مقابلة السيد - مينايا يعود إلى بلنسية ويخبر السيد بكل شيء -
 السيد يحدد مكان اللقاء

نطلب منك معروفاً، كملك لنا وسيد،
 أن تأذن لنا، وتخلصنا النصح فيما نحن عازمان،
 فنطلب لنا زوجتين: بنتى القنبيطور،
 نريد أن نبنى بهما لنجمع شرفنا إلى شرفهما.
 وفكر الملك طويلاً، مع نفسه تملى أكثر من ساعة:
 «لقد نفيت الطيب القنبيطور من أرضى،

أسأت إليه فردّ الإساءة ولاءً،

ولا أدري إذا كان مثل هذا الطلب يرضيه،

ولكن إذا رغبتا حقا في الزواج تحدثنا عنه مع السيد».

أرسل الملك في طلب مينايا ألبار هانييث و بدرو برمودث،

أراد دون الفونسو أن يتحدث إلى الاثنين،

وعندما وصلا صحبهما إلى إحدى القاعات :

- « اسمعني يا مينايا ألبار هانييث، وأنت يا بدرو برمودث أيضا

لقد خدمني مخلصا سيدي روى دياث القنبيطور،

إنه أهل للتقدير، وقد عفوت عنه،

فليات ليراق إذا كان راغبا في اللقاء،

ثمّة حدث جديد في البلاط أود أن أعلم به سيديكم.

دييجو وفرناندو أميرا كاربون،

يرغبان في الزواج من بنتي السيد،

كونا رسول الحكيمين، وجاء الدور لأنوجه إليكم بالرجاء،

أبلغا رسالتي شخصيًا إلى الطيب القنبيطور،

إذا كان يشرفه، أو مع الأيام يزداد به شرفا :

أن يصبح صهرا لأميري كاربون».

فتحدث مينايا، بينما صمت بدرو برمودث يتابع الحديث.

«سوف نرجوه فيما به تتحدثون،

وبعدا يفعل السيد ما يوافق هواه»،

- «وأیضا قل لروى دياث من وُلد في ساعة طيبة،

إنني مستعد للقاءه في المكان الذي يريد،

وحيث يختار نرفع الأعلام ونخطط الحدود،
من جانبي يسعدني أن أمد يد العون للسيد». .
ثم ودعا الملك، ومع الرسالة قفلا عائدين،
مسرعين إلى بلنسية، رفقة رجالهم وكل التابعين،
وعندما عرف الخبر الطيب القنبيطور،
ها فرسه وسريعا خرج للقائهم،
ثملا الابتسامة وجهه، ومحتضنا حيا الجميع،
«وصلت يامينايا؟. وأنت أيضا يا بدرو برمودث؟»،
في أرض قليلة يوجد رجال في قامة هذين الفارسين،
كيف كانت تحية ألفونسو، سيدي، وأى الأخبار تحملان،
هل خلفناه سعيدا، وكيف كان وقع هداياي». .
فرد مينايا: «نعم، كان سعيد القلب والروح،
سرّ بما تلقى، ومعنا ردّ لكم المعروف». .
فقال سيدي: «شكراً للخالق»،
ثم أنها التحية، وبعدها جاء دور الكلام
عما يحملان من رجاء ألفونسو ملك ليون،
ورغبته في أن يزوّج بنتى السيد من أميرى «كاريون»،
سيكون عملا طيبا، وبه يزداد مع الأيام تشريفا،
وله يقدمان المشورة خالصة، نابعة من القلب والروح،
وبعد أن استمع لذلك سيدي القنبيطور الطيب،
فكرّ طويلا، وعلى مهل راح يتأمل الأمر:
«شكرا للمسيح سيدي،

نفوف من أرضي، وانزعوا مني كل مجد،
 بالجهد الكبير حصلت ما معي اليوم،
 شكرا لله، لأن الملك رد إلى رضاه،
 وطلب يدى بنتى زوجتين لأميرى كاريون،
 قولاً لى يا مينايا ألبار هانييث، وأنت يا بدرو برمودث
 عن هذا الزواج، ما رأيكما، أنما الاثنان؟».

- «ما تراه أنت ويسعدك، نراه نحن ونوافق عليه».
 فرد السيد: «أميرا كاريون نبيلان، ولدا من أصل نبيل
 زهوان بنفسيهما، وفي حاشية الملك معدودان،
 ولكنى لخطة الزواج هذه غير مطمئن،
 أنا وقد نصح به الملك، فقلوه واجب التنفيذ عند الخلاف،
 فى السر ندرس الأمر ونقلب الرأى،
 وندعو إله السماء أن يوفقنا إلى ما هو حق وخير.
 وفضلا عن ذلك فإن دون ألفونسو يقول لكم:

«إنه ليلقاك يذهب إلى أى مكان تختار،
 يريد أن يراكم لينحككم عفوهُ، ويضق عليكم جميله،
 وتستطيعون أن تتبادلوا معه القول لتنتهوا فى القضية إلى رأى».
 حيثذ رد السيد: «ذلك شىء يسعدن من القلب!».

حد «مكان اللقاء عليكما أنما أن تختاراه».

فقال مينايا: «أنتم سيد العارفين،

- «لايدهشن أحد إذا أمر الملك ألفونسو

أنه ليلقانى سوف يذهب حيث أختار أنا،

فأنا أحتفظ له بولاء عظيم كسيد وملك،
 أما وأن هذه إرادته، فلتكن إرادتي أيضاً،
 على ضفاف تاجو، فهو نهر كبير،
 هناك سنتلق في الموعد الذي يحدده سيدي».

 سريعاً كتبت الرسائل، وفي الحال وقعتها،
 ومع فارسين أمر أن ترسل على الفور،
 مايريده الملك سوف يحققه القنبيطور.

١٠٣

الملك يحدد موعد اللقاء، ويتيأ مع رجاله للذهاب

وصلت الرسائل وأبلغت إلى الملك المحل،
 وهو يقرؤها خفق قلبه سعادة :
 «تحيات إلى سيدي من تمنطق سيفه في لحظة طيبة،
 سيكون اللقاء خلال ثلاثة أسابيع،
 إذا امتدت بي الحياة ستروني هناك بلا تأخير».

 سريعاً، على صهوات الخيل، عاد الرسل لرؤية السيد.
 كلا الجانبين أخذ عدته لهذا اللقاء،
 من رأى عبر قشتالة بغلة جميلة تحت السير،
 وحصاناً ملكياً بالغ الجمال يسرع مزهواً،
 وخبولاً رائعة المظهر، وفرساناً ممتازين،
 إيات كثيرة تخفق عالياً على ساريات عالية،
 توسطها شعار بالذهب والفضة أحسن تزيينه،

أغطية كثيرة، وملابس من جلود، وعباءات من صنع الإسكندرية،
وأمر الملك بإرسال أغذية وفيرة،
إلى ضفاف تاجو حيث تجرى استعدادات اللقاء،
أكثر الملك حاشيته وأحسن اختيارها،
وأمر «كاربون» بلفهما البشر بمشيان،
هنا جاء ليقبضا، وهناك يدفعان،
ثروات طائلة عندهما، وبالزواج سينمو ما يمتلكان،
وسيكون لهما من الذهب والفضة كل ما يغيان..
بدأ الملك دون الفونسو الرحلة،
ومعه الكونتات، وكبار الأغنياء؛ وكثير من الجنود،
وصحب أمير «كاربون» معها حاشية عديدة،
وذهب مع الملك كثير من أهل ليون، ومن جند غاليسية،
ودون أن نحسب معهم، وليكن في علمكم، الجيوش القشتالية،
على الخيل، والأزمة مرسله، حثوا السير إلى مكان اللقاء.

١٠٤

السيد ورجاله يتهاون للذهاب إلى اللقاء - الرحيل من بلنسية -
الملك والسيد يتقابلان على ضفة نهر تاجو - الملك يعفو عن
السيد علانية - وليمة كبرى، الملك يطلب يدى بنتى السيد
للأميرين - انتهاء اللقاء - هدايا السيد للمدعوين - الملك يقدم
الأميرين للسيد

سيدى الثنيطور فى بلنسية.

من زمن وهو يعد نفسه للقاء المنتظر،
يقال فارهة للحمل، وخيل أصيلة للركوب مُعدة ومهيأة،
وأسلحة ممتازة، وأفراس دريرة،
وعبائات فاخرة، وأغطية وثيرة، وملابس من جلود،
والشبان والرجال في ملابس زاهية الألوان،
وكان هناك مينايا ألبار هانييث، ويدرو برمودث،
ومارتين مونيوث، وكان حاكماً على «مُت مايور»،
ثم مارتين أنتولينيث، ذلك البرغشي المخلص،
والمطران دون خرونيمو كبير رجال الدين،
وجاء ألبار ألباروث في رفقة ألبار سلفادورث،
ومونيو جوستيوث، الفارس الرق،
وجاليندو غرسية، وكان قادماً من أرجون،
كل هؤلاء كانوا يستعدون ليرافقوا السيد القنبيطور،
وآخرون كثيرون من الأتباع الأوفياء،
ألبار سلفادورث، و جاليندو الأرجون،
هما الاثنان كلاهما، تلقيا أمراً من القنبيطور:
أن يقوموا على حراسة بلنسية بالقلب والروح،
ويشترك في حمايتها معهما كل من فيها من سكان،
وأمر سيدي بأن تغلق أبواب القصر،
والأ فتفتح ليلاً أو نهاراً، أو تحت أى سبب،
رداخله توجد زوجه وبتاه الاثنان،
ومعها ترك السيد روحه وقلبه،

ومعهن سيدات أخريات يقمن على خدمتهن،
وأمر بشدة كفارس عاقل
الآن يسمح لأية واحدة بالخروج من القصر
حتى يعود من اللقاء، من وُلد في لحظة سعد.
خرجوا من بلنسية، وهزوا مهامزهم،
كلها خيل حرب، دريرة في الجرى، قويةُ البدن،
غنمها سيدي في الحرب، ولم تأت هدية من أحد،
إنه ذاهب للقاء الملك، طبقاً لما اتفقا عليه،
وقبله بيوم وصل إلى المكان الملك دون ألفونسو،
وعندما رأوا القنبيطور الطيب يقترب من بعيد،
تقدموا للقاءه مع الكثير من مظاهر التشریف،
وعندما رأى ما يحدث، من وُلد في ساعة طيبة،
أمر الجميع بأن يتوقفوا هادئين،
ماعدًا الفرسان الذين يجونه من القلب لأنهم مخلصون،
فقد ترجل مع خمسة عشر منهم، وعلى الأرض انتصوا واقفين،
وعلى النحو التالي تحرك من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة:
جثا على ركبتيه، وبالأرض التصقت يده،
وقضم بأسنانه حشائش الأرض وما عليها من نبات،
وقاضت عيناه دمعاً، فقد كانت فرحته غامرة،
عرف كيف يعبر عن خضوعه لألفونسو سيده،
وبنفس الشاعر تهاوى السيد على قدمي الملك،
وفي نأثر بالغ تحدث الملك دون ألفونسو،

« انهض، قف، أيها السيد القنبيطور،
 قَبَلْ يَدَيَّ فحسب، وأعفك من تقبيل القدمين،
 وإذا لم تفعل ما أمرك، فلن يكون لك من حبي نصيب.»
 وتابع القنبيطور زحفه جاثياً على ركبتيه:
 «منكم أطلب معروفاً، سيدي الشرعي،
 كما أنا، جاثياً على ركبتي، هبني عفوك،
 علانية، كي يسمعه الذين حول أجمعون.»
 فقال الملك: «لك ما طلبت من أعماق القلب والروح،
 الآن حالا، عفوت عنكم، ولكم رددت رضاي،
 وعبر كل مملكتي تستطيع أن تتجول منذ اليوم.»
 وتكلّم سيدي، عارضاً رأيه:
 «قبلت عفوكم، دون ألفونسو سيدي،
 شاكراً عليه إله السماء، وأنتم،
 وأيضاً هؤلاء الفرسان الذين معي من حول.»
 بقى السيد جاثياً، ثم قَبَلْ يَدَيَّ الملك،
 ونهض واقفاً، وفي الفم قلبه،
 وعصت الفرحة كل الذين جاءوا معه مرافقين،
 وأحزنت اثنين فحسب هما: ألبار دياث، وغرسية أوردونييث،
 وتحدّث سيدي فشرح وجهة نظره،
 أنا شاكر للأب الخالق،
 لأنه يسرّ لي عفو سيدي ألفونسو،
 علني أن أتوجه بالشكر لله ليل نهار،

يجب أن تكون ضيف إذا كان هذا يسرك، يا سيدي
فرد الملك: «ليس هذا هو العدل،
أنت وصلت اليوم فحسب، وقبلك أمس وصلت أنا،
وإذن تكون أنت ضيف، أيها السيد القنبيطور،
وغداً يكون ما تريد أنت وندخل على قلبك السرور».
فقبل السيد يد الملك، وأطاع ما قال،
والآن توجه إليه بالتحية أميراً كاريون:
«تحياتنا لك يا سيد، يا من جئت إلى الحياة في لحظة سعد،
نودّ مساعدتك، ونحن معك في كل ما تريد».
فأجابها السيد: «تلك إرادة الخالق».
سيدي روى دياث، من ولد في ساعة طيبة،
كان ضيفاً على الملك طوال يومه،
لم يستطع الملك أن يفارقه، كان يحبه من القلب،
وأخذ يتأمل لحيته مندهشاً وقد استطالت سريعاً.
والذين مع الملك جميعاً أظهروا إعجابهم بالسيد،
ومرّ النهار، وأقبل الليل الليل زاحفاً على مهل.
وفي اليوم التالي، أشرقت الشمس كاملةً الوضوح،
فاصدر القنبيطور أوامره إلى تابعيه،
أن يعدوا وليمة ضخمة تكفي الذين هناك جميعاً،
كان يسر سيدي القنبيطور أن يبدو على هذا النحو كريماً،
شاعت البهجة بين الحاضرين، واتفقت كلمتهم على أنهم
خلال ثلاث سنوات مضت لم يأكلوا أفضل مما أكلوا اليوم،

وفي صباح اليوم التالي، ما كادت تشرق الشمس،
 حتى أخذ المطران دون خرونيمو يرتل قَدَّاس الصبح،
 وهم خارجون من القَدَّاس التقوا جميعاً،
 وبلا تأخير أخذ الملك يشرح وجهة نظره.
 «اسمعوني: الجيش، والكونتات، والأمراء،
 أود أن أتوجه برجاء إلى سيدي القنبيطور،
 تلك إرادة المسيح، ولتكن في صالحه،
 اطلب يدى بنتيكم، دونيا البيرا ودونيا سول،
 لتكونا زوجتين لأميري كاربون،
 وفيما أرى: زواج مشرف، ولفائدة الطرفين،
 الأميران يطلبانها منكم وأنا أمركم به،
 والحاضرون هنا من كلا الجانبين،
 من أتباعكم وأتباعي، هم الراجون الخاطبون،
 فاقبل تزويجهن يا سيدي، وفي حراسة الخالق تكون».

فردَّ القنبيطور: «ليس عندي بنات للزواج،
 إنهما طفلتان لم تكبرا بعد، وعلى الزواج مازالتا صغيرتين،
 أميرا كاربون قوم مشهورون، وصيتهم طبق الأفاق،
 صالحان للزواج من بنتي، ولغيرهما أكثر صلاحاً،
 هن بنتاي من صليبي، أما الذي رباهن فأنت،
 وأنا وستاي تحت أمركم، طوع ما تريد،
 هاهما، خذهما بيدك، دونيا البيرا و دونيا سول،
 وزوجهن بمن تريد، فسأبقى سعيداً».

فردَ الملك : « شكراً لك ولكل الحاضرين » .
وتقدم أميراً كاريون، فقبلا يدي من وُلد في ساعة طيبة .
وتبادلا السيوف مع القنبيطور في حضرة الملك دون ألقونسو،
وتحدث الملك كَمَسِيد صالح :
« شكراً ياسيد، فأنت طيب، ومختار من الخالق .
زَوْج بنتيك من أميراً كاريون،
سأخذ الاثنتين بيدي، دونيا ألبيرا و دونيا سول،
لتصبحا زوجتين لأميرى « كاريون » ،
سأزوج بنتيك بإذن منك وبرضاك،
تلك إرادة الخالق، وفيها كل الخير،
وهاهما الآن بين أيديكم . . ياأميرى كاريون،
هما تذهبان معكم، ترافقانكم، لأن من هنا سأعود،
لهما منى، كمساعدة، ثلاث مائة مارك من الفضة كاملة،
ينفقانها في زواجهما، أوحيت تأمرون،
عندما يصبحان معكم، إلى جواركم في بـلنسية الكبيرة،
فالأصهار والبنت، كلهم أولادكم،
اصنعُ بهم ما يخلو لك، أيها القنبيطور » .
واستقبلها السيد وبعدها قَبَّل يدي الملك قائلاً :
« شكرى لكم لا يحصى، ملكا وسَيِّدا،
أنت الذى اخترت وزوجت بنتى ولست أنا » .
تبدلت الكلمات، وتمت الخطوبة .
وفي اليوم التالى عندما أشرقت الشمس،

كل واحد عاد إلى المكان الذي جاء منه،
حينئذ قام سيدى القنبيطور بعمل عظيم،
خيول ملكية، إلى جانبها بغال فارهة،
وملابس أنيقة، غالية الثمن نادرة،
بدأ سيدى يوزعها على كل من قبل هداياه وورغب فيها،
أعطى كل فرد ما طلب، أبدأ لم يكن الجواب : لا،
قريباً من ستين جواداً قدّمها سيدى هدايا.
وكل اللين حضروا اللقاء عادوا يحملون شيئاً»،
وبدأوا يتعجلون الرحيل قبل أن يدخل الليل،
وأخذ الملك الأميرين من يديهما،
ثم وضعهما بين يدي سيدى القنبيطور :
- «ولذاك الاثنان، وفي نفس الوقت هما صهراك،
ومنذ اليوم فصاعداً، أنت تعرف ماذا تصنع معها يا قنبيطور،
يخدمانك كأب، وتحمبها كسيد».
«اشكركم عليه أيها الملك، ومغتنباً أقبل هديتك،
والله الذي في السماء سوف يكافئكم عليه».

١٠٥

السيد لا يريد أن يقدم بنتيه بنفسه - مينايا سيكون ممثلاً للملك
«إف أطلب منكم معروفاً، منكم أنتم، ملكى الشرعى،
لقد زوّجت بنتى، تحقيقاً لرغبتك،
فتخير ممثلاً لك، يتلقاهن ويصحبهن باسمك،

لن أكون أنا الذى أقدمهن بيدي، هكذا لا يملؤهن الزهو». حينئذ ردَّ الملك : «البار هانييث هنا موجود، خذهن بيديك، وقدمهن إلى أميرى كاريون، كما أفعل أنا الآن، كما لو كنا هناك فى بلنسية، سنكون أنت الوكيل عنهن، فى كل حفلات القران والزفاف، وإذا عدنا للقاء عليك أن تقص لى كل ما حدث، فردَّ البار هانييث : «سيدي، سأعمل كل ما يجعلكم مسرورين».

١٠٦

السيد يودع الملك - هدايا

اعلم أن كل شيء تم على نحو ما فكروا فيه، - «أيها الملك دون ألفونسو، لأنت سيد شريف، كتذكار لهذا اللقاء الذى تم بيننا تقبل منى شيئاً، سوف أقدم لكم ثلاثين جواداً أصيلة، كلها رائعة الإعداد، وثلاثين أخرى للسبق جيدة التسريح، تقبل منى هذه الهدية، ومعها أقبل يديكم». فرد الملك دون ألفونسو: «لقد حملتني كثيراً، إن لأتقبل هداياكم التى أمرتم بدفعها إلى، داعياً الخالق، ومعك كل القديسين، أن يكافئك على ما أهديتنى وقدمت إلى، سيدي، روى ديات، لقد بالغت فى تشريفى، خدمتني بإخلاص، وبق أن أرد لك الجميل،

لئن امتدت بى الحياة، فسوف تتلقى منى الكثير،
فى رعاية الله أدعكم، وأرحل منياً هذا اللقاء،
إله السماء يتولى ما اتفقنا عليه، ويبلغ به غايته.»

١٠٧

كثيرون من أتباع الملك يذهبون مع السيد إلى بلنسية
الأميران يذهبان فى صحبة بدرى برمودث

امتطى السيد صهوة فرسه ببيكا،
- « هنا أقول، أمام سيدى الملك ألفونسو،
الذين يودون أن يحضروا حفلات الزواج ويتلقوا هداياى،
فليتبعون الآن، ذلك شئ فى فائدتهم ولصالحهم.»
وودع السيد الملك ألفونسو سيده،
لم يرد أن يخرج معه فى رفقة مودعاً، ومن هناك افتراى.
اسمعوا أيها الفرسان : الراغبون فى المحيى معنا
عليهم أن يذهبوا فيقبلوا يدى الملك ألفونسو مودعين،
- « اصنع فينا معروفاً، وامنحنا رضاك،
فنحن ذاهبون إلى بلنسية، مدينة كبيرة فى يد السيد،
لنحضر حفل زواج أميرى كاربون
من بنتى سيدى : دونيا ألبيرا و دونيا سول.»
فسر الملك مما قالوا وتركهم جميعاً أحراراً يذهبون،
وازداد رفاق سيدى عدداً، وتناقص أتباع الملك،
كثيرون من الفرسان آثروا أن يذهبوا برفقة القنبيطور،

توجهوا إلى مدينة بلنسية، وقد ربحها السيد في لحظة حاسمة،
وقد أمر دون دييجو ودون فرناندو، أن يكون في حاشيته،
وأن يكون معهم بديرو برمودث، ورابعهم مونيو جوستيوث،
فليس بين حاشيته أفضل من هؤلاء الفرسان معرفة
بما عليه أميرا كاريون من تقاليد وعادات.
هناك.. ذاهباً أسور جنثالث، عريد وثرثار،
طويل اللسان، وفيما عدا ذلك يمكن الاعتماد عليه قليلا،
حظى أميرا كاريون بترحاب كبير، ولقيا تشرافاً عظيماً،
هما الآن أمام بلنسية، المدينة العظيمة التي يجبها سيدي القنبيطور،
وما إن اقتريا حتى فاض بهما البشر من كل جانب،
قال سيدي لدون بديرو، و مونيو جوستيوث :
« لينزلا داراً فخمة تليق بمقامهما، أميرا كاريون،
كن معهما، في صحبتها، بهذا امرتك أنا،
وغدا، مع شعاع الصباح، والشمس على وشك الشروق،
يذهبان ليريا زوجتيها دونيا ألبيرا و دونيا سول.

١٠٨

السيد ينهي خمينا بالزواج

مع الليل الزاحف اتجه كل واحد إلى سكنه،
ودخل سيدي القنبيطور القصر،
وهناك كانت دونيا خمينا مع بنتها في انتظاره :
- « وصلت؟ قنبيطور، يا صاحب السيف البتار»

أسعد الله عيوننا برؤيتك لأعوام طويلة» .
 - «شكراً للخالق، وقد يَسَّرَ لك المجهىء إلى هنا يا زوجتى الشريفة،
 جئت لك بصهرين، لبنتيك، من أصحاب الشرف العالى،
 اشكرنى عليه، يا ابتى!، فسيكون زواجاً موفقاً» .

١٠٩

دونيا خمينا وبتاها يظهرن سرورهن

دونيا خمينا وبتاها قبلن يد سيدى شاكرات،
 ونفس الشيء صنع من يقمن على خدمتها من سيدات،
 - «شكراً للخالق، ولك ياسيد، يا صاحب اللحية الغزيرة،
 كل ما تفعله صحيح محكم التنفيذ،
 ما امتدت بك الحياة سوف تعيش بنتاى سعيدتين لاينقصهما شيء»
 - «عندما تزوجنا، سنكون نحن الاثنتين من كبريات الغنيات» .

١١٠

السيد يشك فى الزواج

«زوجتى، يادونيا خمينا، فلتوجه بالشكر للخالق،
 الحق أقول لكما يا بنتى دونيا ألبيرا و دونيا سول
 بهذا الزواج سوف نزداد شرفا ونعلو مقاما،
 ولكن اعلمن قبل أى شيء أنه لم يكن من إعدادى،
 فقد طلبكما وألح فى الرجاء سيدى ألفونسو،
 رجائى بإصرار، وراعياً فيه من أعماق القلب،

واعترف لكنّ في شجاعة بانى لم أستطع أن أقول له : لا ،
وهكذا أضعكن في يديه، بنتى . . . أنما الائتتان ،
وصدّقتنى أن الذى زوّجكما هو الملك ولست أنا .

١١١

الاستعداد للزواج - هدايا الأميرين - مينايا يقدم الزوجتين
للأميرين - تبريك وقدّاس - مهرجانات على امتداد خمسة عشر
يوما - انتهاء الزواج - هدايا للمدعوين - الشاعر الجوّال يودع
سامعيه

بدأوا في الحال بتزيين القصر ورفع الرايات ،
غُطيت الأرض وكل الجدر بفافر السجاد ،
أحمر اللون ، وبالأقشة الحريرية ، وأخرى كثيرة مشابهة ،
كم هو رائع أن تجلس في قصر وأن تأكل في خوان .
كل فرسان القنبيطور دخلوا مجتمعين ،
وفي الحال أرسلوا في طلب أميرى كاربون ،
وصل كلاهما ، كل واحد على ظهر جواده ، ووقفوا أمام القصر ،
يلمعان في ملابس زاهية ، زُيّنت بكل غال ثمين ،
ثم ترجّلا ، ودخلا القصر ، يا إلهى . . . عليهما وقار الخاشعين !
فتلقاهما سيدى ، ومن معه من رجاله الأوفياء المخلصين ،
وأمامه ، وأمام زوجته ، حيّوهما في تواضع أمين .
ثم تقدما فجلسا على مقعد فخيم .
كل أتباع سيدى ، في حذر وفطنة كبيرة
ركزوا أبصارهم فيه ، على من في لحظة طيبة دق باب الحياة ،

وعلى قدميه هبَّ السيد واقفاً :

- «علينا أن نفعله الآن، لم كل هذا التأخير؟

تعال هنا يا ألبار هانبيث، يا من أحبُّ كثيراً، وله آمنٌ،
هاهما بتاي، أودعهما أمانة بين يديك.

وأنت تعرف أن الملك أمر به، وبه وعدت،

ولا أودَّ أن أراجع في شيء اتَّفقت عليه مع الملك.

قدمها بيديك إلى أميرى كاريون،

ثم ينلقون البركة، ومعها ينتهى الحفل.»

حينئذ قال مينايا : «سأنفذ ما تريد مسروراً»،

ووقفت البنتان، وأخذهما السيد من يديهما،

وهما أمامه، بين يديه، تحدث إلى أميرى كاريون :

- «تعالوا أمام مينايا أيها الأميران الشقيقان :

بيد الملك ألفونسو والذي أنابنى عنه،

أقدم لكم هاتين الأنستين، كلاهما من ظهر فارس وُلدت،

خذاهما زوجتين، فهو شرف لكما، وفي فائدة الجميع.»

تلقاهما الأميران بحب وفي بهجة،

ثم تقدموا فقبلوا يدي السيد ودونيا خمينا؛

وعندما انتهى الحفل وإجراءات الزواج غادروا القصر،

واتجهوا مباشرة مسرعين إلى كنيسة مريم المقدسة،

وارتدى المطران دون خرونيمو ملابسه الدينية مسرعاً،

وجلس على باب الكنيسة ينتظر قدوم العرمان،

وعندما وصلوا منحهم بركاته، وأقام معهم القداس،

وبعدھا غادروا الكنيسة، وامتطوا جيادهم مسرعين،
وعلى رمال بلنسية الواسعة خلفوا خطاهم،
يا إلهي... كم كان رائعاً سيدي وهو يلعب مع تابعيه السلاح!
استبدل خلاله ثلاثة أفراس، من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
وسعيدا بما رأى، غمرت البهجة سيدي كثيرا،
ثم وثب أميراً كاربون على جواديهما،
وعادا إلى بلنسية مع زوجتيهما، ودخلوها فرحين،
كان زواجا باذخا ذلك الذي شهده القصر المحيد،
وفي اليوم التالي أمر سيدي بأن تنصب سبعة أهداف،
وقبل أن يدخل للأكل حطم الجميع،
واستمرت حفلات الزواج خمسة عشر يوماً كاملة،
وسيدي، دون لذريق، من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
اختار من بين البغال والخيل الأصيلة الدريرة،
وحيوانات أخرى كثيرة، مئات قدمها لها هدايا،
وملابس غالية، من الحرير والجلود، وأعطية فاخرة،
دون أن يدخل في عداد ذلك ما قدم لهم من أموال،
وأتباع سيدي تجمعوا واتفقوا فيما بينهم،
على أن يقدم كل واحد منهم للأزواج هدية نادرة،
وكثر الهدايا، وكل من رغب في شيء وجدته بين يديه،
والذين حضروا الزواج من قشتالة عادوا إليها أغنياء،
وبدا المدعوون يعودون إلى ديارهم غانمين،
ودعوا روى دياث، من في لحظة طيبة طرق باب الحياة،

ثم اتشوا فودّعوا السيدات وكلّ النبلاء،
 رحلوا مسرورين شاكرين للسيد، ولكلّ تابعيه،
 تحدّثوا عنهم مادحين، ومن العدل أن يكونوا لهم من الشاكرين،
 كانت فرحة دون ديججو و دون فرناندو غامرة،
 أميرا كاريون، وابنا الكونت دون جنثالبو.
 المدعوون إلى الحفل عادوا إلى قشتالة،
 وظلّ السيد وصهره مقيمين في بلنسية،
 وعاش فيها الأميران قريباً من عامين،
 وما حظيا به من تكريم يعلو عن العذ والإحصاء،
 وكان السيد أيضاً غامر البشر، وكذلك كلّ تابعيه،
 شكرا لمريم المقدسة، وشكرا للأب المقدس،
 أن تُسعد بهذا الزواج سيدي، وكلّ من ساعد عليه،
 وبهذه الدعوات فإن أبيات النشيد تأت إلى نهايتها،
 رعاكم الله، وكان كلّ قديسيه في حمايتكم.

النشيد الثالث

فضيحة كوربس

١١٢

انطلاق أسد السيد - خوف أميري كاريون

السيد يسوس الأسد - خجل الأميرين

كان سيدي السيد القنيطور في بلنسية مع كل رجاله،

ومعهم كلا صهره : أميرا كاريون،

وقد استلق القنيطور على أريكة ناعمة،

حين وقعت مفاجأة سيئة، اسمعوا... سوف أحكيها لكم :

انطلق أسد من مريضه حيث كان محموساً،

فانتشر رعب عظيم عم كل من في القصر،

وفي الحال شد أتباع القنيطور دروعهم،

واحاطوا بالأريكة بحمون سيدهم،

ولكن فرناندو جنثالث أمير كاريون،

حار أين يختنق، فليس ثمة غرف مفتوحة ولا أبراج،

فارتقى تحت الأريكة يكاد يموت رعباً،

أما ديجو جنثالث، فدلف هارياً من الباب،

وهو يصيح بصوت مرتفع : « يا لمدينتي كاريون، لن أراها ثانية ! ».

ثم اختنق وراء معصرة للبيذ مرتعد الفرائص،

فانسخت عباءته وصدّاره، وما يرتدى تحتها من ملابس،
حينئذ استيقظ من في لحظة سعد جاء إلى الحياة،
وكل رجاله الطيبين أحاطوا بأريكته حيث ينام،
ماذا حدث يارجالي، ملتفون حولي، ماذا تريدون؟
أيها السيد لقد أربنا الأسد كثيراً،
واعتمد سيدي على كوعه، وهب واقفاً،
ثم ارتدى صدّاره وانجه نحو الأسد،
فإن رآه الأسد قادماً حتى تملكه الحياء والتجمل،
وأمام سيدي طاطاً رأسه، وأرخى مخليه،
وسيدي، دون لذريق، أمسك به من رقبته،
ثم ساقه مطيعاً، ورده إلى القفص من جديد،
وكل الذين معه رأوه، ولم يخفوا دهشتهم معجبين،
ثم عادوا إلى القصر، إلى القاعة الكبرى غير خائفين،
ويبحث سيدي عن صهره، فافتقدهم بين الحاضرين،
فنادوا بهم في كل جانب، فما سمعوا لهم صوتاً،
ثم وجدوهم أخيراً، شاحبي الوجوه، زاغت منهم العيون،
آه لو رأيت من في القاعة، كيف انفجروا جميعاً ضاحكين،
لكن سيدي القنبيطور ردهم إلى الهيبة والاحترام،
وأحس أميرا كاريون بالتجمل الشديد،
وأصبح كابوساً يزعجهم ما حدث هناك،

أبو بكر ملك مراکش يهاجم بلنسية

وهما على هذه الحال غارقين في الألم العميق،
جاءت جيوش مراکش تريد أن تضرب الحصار على بلنسية،
وهناك في وادي «كوارتو» نزلوا معسكرين،
نصبوا خمسين ألف خيمة، وربما تجاوزت الحساب،
وعلى رأسهم الملك أبو بكر، ولعلكم سمعتم عنه شيئاً.

الأميران يخافان من المعركة - السيد يؤنبها

كان السيد متبهجاً وكل رجاله،
ولأن غنائمهم زادت، فهم يتوجهون بشكرهم للخالق،
بينما، ليكن في علمكم، ازداد أميرا كاربون حزناً،
وقد داخلهم الرعب، وهم يرون خيام الجيش الإسلامي يخطئها الحصر،
وابتعد الأخوان، وفيما بينها بدأ يتهامسان :
عندما قررنا الزواج من بنتيه أحصينا الأرباح، ولم نفكر في الخسائر،
لم يبق أمامنا الآن غير أن نخوض المعركة نحن الاثنان،
وبعدها لن نعود لئرى «كاربون» من جديد،
ولن يمضى زمن طويل حتى يصبحن أرملتين بنتي السيد،
وسمعهما مونيو جوستيوث الطيب،
وبهذه الأخبار الجديدة جاء إلى سيدى القنبيطور :

«هناك، صهرآك كلاهما، يا لهما من شجاعين !
 قبل أن يخوضا المعركة بدأ يخنا إلى كاريون،
 فاذهب إليهما تواسيها، وثبتت قلبيهما بحق الخالق،
 وأن يبقيا في سلام، دون أن يشاركا في المعركة بصيب،
 معك وحدك سنتصر، وسوف يساعدنا الله» .
 ذهب إليهم سيدي دون لذريق، ومعهم تحدث مبتسما
 «يا صهرى، الله يحميكما، يا أميري كاريون،
 بين يديكما بتناى، بيضاوان كالشمس،
 إن أفكر في معارك جديدة، وأنتما تخنا إلى كاريون،
 ابقوا إذن في بلنسية، واستمتعا بما تحبان،
 أما المسلمون الذين هناك فأنا أعرف بهم،
 وعاهد العزم على انتزاع النصر منهم بعون الله» .

١١٥

رسالة أبي بكر - هجوم الفرسان المسيحيين -
 جين الأمير فرناندو - سخاء بدر و برمودث^(١)

وبينا كانا يتحدثان في هذا، أرسل الملك أبو بكر إلى السيد يطلب منه
 أن يترك بلنسية ويرحل في سلام، وإذا لم يفعل فإن عليه أن يتحمل تبعات ما
 يفعل، فردّ السيد على الرسول : « اذهب، وقل لأبي بكر، ابن أعدائنا، قبل
 ثلاثة أيام سوف أعطيه ما يأمرن به» .

(١) في المخطوطة حرم، ضاعت معه خمسون بيتاً من الملحمة، فاستعوض عنها، بما يقابلها في
 النص الثرى للملونة، الواردة في «معمونة العشرين ملكاً» .

في اليوم التالي أمر السيد جميع رجاله بأن يحملوا السلاح، ثم خرج للقاء المسلمين، حيث طلب منه أميراً كاربون أن يكونوا في المقدمة، وعندما رتب السيد جيشه صفوفاً، فإن دون فرناندو، أحد الأميرين، تقدم لمنازلة مسلم يدعى Aladraf، وتقدم المسلم بدوره، فم يكد الأمير يراه حتى امتلاً رعباً منه، فترجع مذعوراً، ثم ولئى هارباً، لم يجرؤ على الانتظار حتى يراه.

وعندما رأى ذلك بدرو برمودث، وكان إلى جانبه، تقدم لمنازلة المسلم، وناضل ضده حتى صرعه، ثم التقط جواده وأسرع يقتفى أثر الأمير الهارب، وقال له: «دون فرناندو، خذ هذا الجواد، وقل لكل العالم أنك قتلت المسلم الذي كان يملكه، وأنا أشهد لك بذلك».

ورد عليه الأمير: «دون بدرو برمودث؛ اشكر لك كثيراً ما صنعت من أجلي^(١)».

على يوماً أستطيع أن أرد لك ما صنعت معي مضاعفاً،
وبعدما عاداً معاً رفيقين،

وأمن دون بدرو على زهو فرناندو،

وابتهج سيدى، وغمرت الفرحة كل أتباعه.

- «إذا أراد الله، والأب الذى فى الأعلى،

فإن صهرى سيكونان ممتازين فى ساحة القتال!».

وبينما هم يتحادثون بدأ الناس يتوافدون،

وفى جيش المسلمين بدأ يرتفع قرع الطبول،

ومع ضجيجها المتوالى عمت الدهشة كثيرين من أولئك المسيحيين،

(١) هنا ينتهى الحرم، ونبدأ اللحمة الشعرية.

لم يسمعوا قرع طبول من قبل، فن قريب جاءوا قادمين،
 وكان أكثرهم دهشة ديجو و فرناندو،
 ولو ترك الأمر لإرادتهما ما جاءا هذا المكان.
 وسمع ما تحدثوا به من في ساعة طيبة جاء إلى الحياة :
 - « إلى بدرو برمودث؛ يا ابن أخى العزيز!
 أوصيك جيداً بدون ديجو وأخيه دون فرناندو،
 هما صهراى، ومن القلب أحبهما، أحب الاثنين،
 ويعون الله لن نُهزم مع المسلمين في ساحة القتال» .

١١٦

بدرو برمودث يعتزل الأميرين - مينايا ودون خرونيمو
 يطلبان المكان الأول في المعركة

إن أطلب منك يا سيد، رحمة بى وشفقة،
 ألا أصبح رائداً لأميرى كاربون أبداً،
 فليمن بهما من يريد، وأمرهما لم يعد يهمنى على أى حال،
 أنا ورجالى في الطليعة نهاجم العدو،
 وأنت مع رجالك تبقى ثابتاً في المؤخرة،
 فإذا تعرضت لخطر عظيم، أمكنك أن تأتى لنجدتنا» .

وهنا وصل مينايا ألبار هانيث :

- « اسمع يا سيد، أيها القنبيطور المخلص،
 المعركة التي نخوضها هي معركة الخالق،
 وأنت أهل لكى يكون الله إلى جوارك،

ومن الجانب الذى تراه مُرنا نبدا الهجوم،
 وكل واحد منا سينهض بواجبه كاملا،
 ويعون الله وحظك، سترى ما يكون».
 وقال السيد القنبيطور: «لنكن هادئين، اصبروا»،
 ها هو المطران دون خرونيمو قادم فى كامل العدة والسلاح،
 ثم توقف أمام القنبيطور، كعادته طافح السعادة،
 - «سأقيم القداس اليوم فى كنيسة الأقاليم الثلاثة،
 من أجل هذا تركت أرضى وجئت باحثاً عنك،
 يملاً على فكرى اننى ربما أستطيع أن أقتل بعض المسلمين،
 إنى لشديد الرغبة فى أن أشرف سلاحى، وأجُتد مهنتى،
 أود أن أكون أول مبارز إذا بدأ القتال،
 هذه رايته، عليها زرافات مرسومة، وأسلحتى تحمل شارق،
 وإذا أراد الله فسوف أجربها،
 وما يمدثنى به قلبى أنفذه فى الحال،
 وأنت، سيدى، سيكون تقديرك لى كبيراً،
 فإذا لم تصنع فى هذا الجميل فارقتك الآن.
 وقال سيدى: «لا شئ يسعدنى مثل أن أحقق لك ما تريد،
 هناك المسلمون على مرمى عينك، فاذهب وجرب معهم سلاحك،
 ونحن من هنا، سترى كيف يقاتل الشماس».

المطران يبدأ المعركة - السيد يهاجم ويقتحم معسكر المسلمين

بدأ المطران دون خرونيمو الهجوم،

ووصل في تقدمه إلى حيث يعسكرون،
 ولأنه سعيد الحظ، ولأن الله يحبه،
 في أول ضربة له قتل اثنين من المسلمين،
 فلما نفذت سهامه انتضى سيفه ومضى يقاتل،
 واستبسل المطران مهاجماً، يا إلهي... كم هو رائع في النضال!
 قتل اثنين بسهم، وخمسة آخرون صرعهم بالسيف،
 وتجمع حوله مسلمون كثيرون، وأوشكوا أن يحكموا حوله الحصار،
 ثم انهالوا عليه طعنا، ولكنه لم ينخر سلاحه،
 ومن جاء إلى الحياة في لحظة سعيدة ركز عينيه فيما يرى،
 احتضن شعاره سريعا، وشدّ قوسه عجلا،
 وهمز «بييكا» جواده الأصيل الدرير،
 ومضى يقاتلهم في الحال بقلبه وروحه،
 اقتحم القنبيطور الصفوف الأولى وجال بينها،
 هزم سبعة من المسلمين، وقتل أربعة آخرين،
 وشكر الله على هذا النصر المبين،
 ثم اندفع سيدي ورجاله يلاحقونهم دون هوادة،
 خيام كثيرة تقطعت حبالها، واقتلعت قوائمها،
 انهارت الأعمدة، ومعها تحطمت الخيام،
 واستطاع أتباع السيد أن يدفعوا جيش أبي بكر عن الميدان.

المسيحيون يلاحقون العدو - السيد يدرك أبا بكر ويقتله،
ويغنم سيفه تيثون

أخرجوهم من خيامهم، ولاحقوهم دون إهمال،
أذرع كثيرة مبتورة وهاوية، ولما نزل قابضة على دروعها،
ورءوس كثيرة في خوذاتها تتساقط على الأرض،
وخيل بلا فرسان لا تعرف لها طريقا تنطلق فيه،
وأدرك سيدي الملك أبا بكر :
أبا بكر تعال هنا، يا من جئت من وراء البحر،
انظر إني، أنا السيد، صاحب اللحية الطويلة، وجها لوجه :
نتبادل التحية، وتعاهد على الإخاء».
فرد أبو بكر على السيد : «إن الله لا يثق في هذا الإخاء،
سيفك في يدك، ومسرعا تهمز جوادك،
وأراك معي تريد أن تجرب الطعام،
وإذا لم يعثر جوادى، أو يطرحنى أرضا،
فلن تلتق معي إلا في أعماق البحر أو على سطح الماء».
ورد سيدي : «ذلك ليس بصحيح».

كان جواد أبي بكر أصيلا، فضى ينهب الأرض مسرعا،
ولكن ببيكا، فرس السيد، نوشك أن تلمسه من قريب،
وأدراك السيد أبا بكر على بعد ثلاثة أذرع من البحر،
وشهر سيفه «كولادا» عاليا، وبضربة عنيفة هوى عليه،

فأطار من خوذته غطاءها،
 وفي ضربة أخرى اخترق الخوذة، وشق رأسه نصفين،
 ومضى السيف في جسمه حتى بلغ منه النصف،
 لقد صرع أبا بكر، الملك القادم من وراء البحر،
 وغنم سيفه «تيثون» وسأوى ألف مارك من الذهب النضار،
 وهكذا انتصر في معركة رائعة وفاصلة،
 شرف بها السيد، وقاسمه الشرف كل تابعيه.

١١٩

رجال السيد يعودون من الملاحقة - السيد سعيد بصهرية،
 وهما خجلان - غنائم المعركة

عادوا جميعاً من المعركة، يحملون ما أصابوا من غنائم،
 واعلم أنهم جميعاً، ويعزم ، سرقوا كل ما في ساحة القتال،
 بدأوا يصلون إلى الخيام مع من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
 جاء سيدى روى دياث القنبيطور المعدود،
 حاملاً في يديه السيفين وكان اعتراضه بها كبيراً،
 وعبر الجثث مضى مسرعاً يبحث الخطو،
 كشف وجهه، وأرسل غطاء رأسه إلى الوراء،
 بينما الكوفية فوق شعر رأسه نصف مستترة،
 حوله، ومن كل الجهات، بدأ أتباعه يتقاطرون،
 شيء فوجيء به سيدى، فأدخل على نفسه السرور،
 ورفع بصره، ثم ركز نظره على مكان معلوم،

فرأى الأميرين، ديبجو و فرناندو، قادمين،
إنهما ابنا ذلك الكونت المسمى دون جنثالبو،
وسر سيدي، وابتسم في حلاوة :

«جئتما يا صهرى؟ ابناى أنتما كلاكما!

فيما يتصل بالقتال أعلم أنكما عائدان مسرورين،
وأخبار طيبة عن نضالكما سوف ترسل إلى كاريون،
وكيف انتصرتما على الملك أب بكر في ساحة القتال،
إنى أثق في الله وفي كل القديسين،
لأننا بهذا النصر العظيم عدنا غانمين».

حينئذ وصل مينايا ألبار هانييث،
وقد تدلى شعاره من رقبته، على مكان بارز في صدره،
ولم يكن يهمه كثيراً أمر السهام تتساقط عليه،
لكن مرسلها لم يحققوا من أغراضهم شيئاً،
وجرى الدم على ساعده، وعند كوعه أخذ يتقاطر،
كان قد قتل عشرين مسلماً على الأقل :

- «شكراً لله، وللأب الذى فى الأعلى،

لك يا سيد، يا من وُلدت فى ساعة طيبة،
لقد قتلت أب بكر وانتزعت النصر فى المعركة،
كل هذه الثروات التى تراها لك ولتابعيك،
وتميز صهراك الأميران مناضلين فى ساحة القتال،
وهما منهماكان الآن فى قتال المسلمين»

وقال سيدي : « بهذا النصر عُوِّضت عن أتعابى،

وإذا كان الأميران راثعين، فهما في المستقبل أكبر تقديراً. .
 كان السيد يتحدث بنية خالصة، ولكنها رأيا فيما يقول سخرية قاتلة.
 ووصلت كل الغنائم إلى بلنسية،
 كان سيدي طافح البهجة، وكذلك كل تابعيه،
 وقُسمت الغنائم إلى أسهم، فبلغ الواحد ست مائة مارك فضية،
 وعندما تسلم صهرا السيد نصيبها،
 اعتقدا أنها لن يعرفا الفقر أبدا في قابل الأيام.
 وبدأ سكان بلنسية يرتدون فاخر الثياب،
 ويقمون حفلات كبيرة، يزهون فيها بملابس جلدية، وصدارات جميلة.
 كانوا جميعاً في بهجة غامرة، سيدي وكل تابعيه.

١٢٠

السيد فرح بانتصاره بصهره (إعادة)

كان يوماً عظيماً بين حاشية القنبيطور،
 بعد أن انتصروا في المعركة، وقتل الملك أبو بكر،
 ورفع السيد يده، وأخذ لحيته :
 - «شكراً للمسيح، سيد العالم،
 لقد رأيت ذلك الذي أمّلت طويلاً،
 أن يكون صهراى إلى جانبي في المعركة، هما الاثنان،
 وأن نشيع أخبارهما حتى تبلغ كاربون،
 أنهما فارسان شريفان، وسوف نشرف نحن بهما كثيراً.

توزيع الغنائم

هائلة تلك الغنائم التي اشتركوا جميعاً في الاستيلاء عليها،
 رجحوا كثيراً من قبل، وما غنموه الآن سبقومون عليه حافظين،
 وأمر سيدي، من وُلد في لحظة سعد،
 بأن تقسم غنائم المعركة الفاصلة التي انتصر فيها،
 فيأخذ كل فرد نصيبه المقدّر له،
 وألا ينسوا الخمس المقرر لسيدي عند التقسيم،
 وهكذا صنعوا، وعند التوزيع كانوا جميعاً عاقلين،
 وبلغ خمس سيدي ست مائة حصان،
 وعدداً من البغال، وأعداداً هائلة من الجمال،
 أعداداً هائلة لا يمكن أن تقع تحت حصر.

السيد في قة مجده يفكر في احتلال المغرب
 الأميران غثيان وموضع التكريم بين حاشية السيد

غنم القنبيطور كل هذه الثروات الهائلة.
 - «شكراً لله سيد هذا العالم!
 بالأمس كنت فقيراً وأنا اليوم من كبار الأغنياء،
 أملك أرضاً، وذهباً، وشرفاً لا ينال،^(١)

(١) وردت كلمة شرف Onor في لغة اللعنة، honor في الإسبانية الحديثة، ولكن منديث بيدال يعلق عليها فيقول: قد يكون المراد بها إقطاعيات.

وأخيراً أصبح صهرى أميرى كاربون،
 وانتصر فى المعارك، كيف ما شاءت إرادة الخالق،
 المسلمون والمسيحيون يرتعدون جميعاً خوفاً منى،
 هناك فى داخل مراكز أرض المساجد اليوم،
 يخافون أن أفجأهم بالهجوم ذات ليلة،
 هم يخافونه وأنا لا أفكر فيه،
 لن أذهب إليهم باحثاً عنهم، وسأبقى فى بلنسية،
 فيها يأتون إلى، يحملون لى الجزية، بمساعدة الخالق،
 يقدمونها لى أو لمن اختاره على هواى». .
 مباحج ضخمة تعم بلنسية العظيمة،
 يشارك فيها كل رفاق سيدى القنبيطور،
 أولئك الذين انتزعوا النصر وقتلوا مخلصين،
 وغمر السرور فياًضاً صهرى السيد،
 فقد جاء نصيبها من الغنائم معاً خمسة آلاف مارك،
 أصبح أميراً كاربون من كبار الأغنياء،
 ثم جاء إلى البلاط مع بقية الفرسان،
 كان سيدى هناك ، وإلى جواره المطران دون خرونيمو،
 وألبار هانميث الطيب، الفارس الشجاع،
 وآخرون كثيرون رباهم السيد،
 وعندما قدم أميراً كاربون،
 تلقاهم مينايا نائباً عن سيدى القنبيطور،
 - «تعاليا هنا، صهرى، فذلك عما يزيدنا شرفاً».

وما إن رآهم القنبيطور حتى تهلل بشراً :
 - « أقدم لكما يا صهرى خمينا زوجى الوفية،
 وأيضاً بنتى دونيا إلبيرا و دونيا سول،
 يربدان عناقكما، وسيخدمانكما من القلب،
 شكراً لمريم المقدسة، أم سيدنا الله
 وبزواجهما منكما سوف يزدادان قدرا،
 وسريعا تصل أخبارنا الجديدة إلى كاريون ».

١٢٣

تفاهة الأميرين - الأميران يصبحان موضع السخرية

وعلى هذه الكلمات ردّ الأمير فرناندو،
 « شكراً للخالق، ولك أيها السيد الشريف،
 لقد أصبحت ثروتنا عظيمة لا يحصيها عدّ،
 بك شرفنا ومن أجلك كان قتالنا،
 انتصرنا على المسلمين، وفي ساحة المعركة قتلنا
 الملك المسمى أبا بكر، خائن بالتجربة،
 فكّر إذن في شيء آخر، أما نحن ففي أمان ».
 وتهاوس أتباع سيدى، خفيفاً يضحكون :
 لقد قاتلوا في شجاعة، وهم يلاحقون أو يهاجمون،
 فم يروا في أى جانب ديجو أو فرناندو،
 ومع السخرية والضحكات تنهال عليها من كل جانب
 عاشا تجربة مريرة متواصلة، ليل نهار بلا انقطاع،
 وتوصل الأميران فيما بينها إلى اتفاق شرير،

اعتزلا الناس، وفيما بينهما كانا أخوين مخلصين،
وما تحدثا به سرًا أمر لايهنا نحن :
- « فلنرحل إلى كاريون، سريعاً دون تأخير،
وما غنمنا من أموال وثروات كثير، وفوق ما نتصور،
ولسنا بقادرين على إنفاقه ما امتدت بنا الحياة! »

١٢٤

الأميران يقرران إهانة بنتى السيد - ويطلبان من السيد زوجته
لكى يذهبا إلى كاريون - السيد يوافق ويقوم بتجهيز بنتيه -
الأميران يتهيآن للرحيل - البناتان تودعان أباهما

نطلب زوجتنا من السيد القنبيطور،
نقول له : إننا سنأخذها معنا إلى أرض كاريون،
لكى نرى ضياعنا، والتي هى ضياعهن اليوم،
فبعدهما عن بلنسية، حيث سلطان القنبيطور قوى،
وعبر الطريق نصنع بهما ما نريد،
قبل أن يسخرنا منا بحادث الأسد الفريد،
فنحن نبلاء، وفي عروقنا يجرى دم أمراء كاريون،
الغنائم التى نحملها كثيرة، وذات قيمة كبيرة،
حانت الفرصة لكى نسخر من بنتى القنبيطور،
وما نعمله من ثروات يجعلنا أغنياء نحن الاثنين،
ونستطيع أن نتزوج من بنتى أى ملك أو إمبراطور،
ولأمر ما نحن ننتهى إلى أسرة أمراء كاريون،
علينا أن نمدخر من بنتى السيد القنبيطور،

قبل أن تذكرانا بجاذب الأسد الجسور.
 وبعد الحوار والاتفاق ذهب كلاهما إلى البلاط،
 تحدّث فرنان جونثالث، فأسكت الجميع :
 « ليحفظكم الله أيها السيد القنيطور،
 وأسبح نعمه على دونيا خمينا، وقبلها أنت،
 وعلى مينايا ألبار هانيث، وكل الذين هنا معك،
 أعطنا زوجتينا، وقد تزوجناهما زواجا شرعيا،
 نريد أن نأخذهما معنا إلى أراضي كاربون،
 نوّد أن نقطعهما أرضا، مزارع مما نملك زيادة في التشریف،
 وترى بنتاك ما نملك من ضياع،
 مزارع واسعة، نورثها من نرزق من أبناء.
 لم يتردد إزاء الطلب سيدي القنيطور :
 « أقدم لكما بنتي، ومعها هدية بعض مالدي،
 أنها تقطعها أرضا هناك في كاربون،
 وأنا أوّد هنا أن أجهزها بثلاثة آلاف مارك،
 وأقدّم لكما الخيل والبغال، خذا من خيرها ما تشاءان،
 وأفراسا أخرى، تكون مدرّبة وسريعة الجرى،
 وملابس كثيرة من حرير، وعباءات قشبية مذهبة،
 ثم أعطيكما سيق «كولادا» و «تيتون»،
 وأنتا تعرفان جيدا أنني غنمتها رجلا،
 لقد اعتبرتكما ابني عندما تزوجتكما بنتي،
 وبذاهبها معكما، فإنكما تنزعان مني مهجة القلب،

فليعرفوا في جليقية وفي قشالة وفي ليون،
 أتى ثروات ضخمة ودّعت بها صهرى،
 اخدما بنتى بعناية، فهما زوجكما في النهاية،
 وإذا عُنيتا بهما، فسوف أعوضكما بالطيب من الهدايا»
 بهذا وعده أميرا كاريون،

حينئذ استقبلا بنتى القنبيطور،
 ثم بلداً يأخذان ما وعدهما به السيد،
 حتى إذا تخيراً من الهدايا ما يجبان،
 أمر أميرا كاريون بإعدادها للرحيل،
 وذاعت الأخبار، وتغشى بلنسية العظيمة نشاط كبير،
 حمل الجميع أسلحتهم، وامتطوا الخيل أقوياء مسرعين،
 لتوديع بنتى السيد الذاهبتين إلى أراضى كاريون،
 تهبأوا للرحلة، وجاء الجميع يقولون لهم : وداعاً...
 حينئذ تقدمت الأختان : دونيا إلبيرا ودونيا سول،
 وجثتا على ركبتيهما أمام السيد القنبيطور :

« نطلب رضاك يا أبانا، يحفظك الخالق،

لأننا جئنا من صلبك وأمنا ولدتنا،

أنما أمامنا. سيّدتنا، وسيّدنا،

الآن؛ وأننا ترسلان بنا إلى أراضى كاريون،

لكما علينا الوفاء بكل ما تأمران،

ومن ثم نطلب منكنا معروفا، نطلبه نحن الاثنتان،

أن ترسلنا معنا رسولا من قبلكما حتى أراضى كاريون.

واحتضنها سيدي، وفي الفم قبل بنيه.

١٢٥

خمينا تودع بنتها - السيد يتها ليوذع المسافرين - تشاؤم.

هذا ما صنع السيد، وصنعه الأم مضاعفا،

- « اذهب بنتي!... في حراسة الخالق،

ومعكما رضا أيكما، ورضائ:

ارحلا إلى كاريون حيث توجد ضياعكما،

إني أحسن في أعماق بأنكما سعيدتين في زواجكما».

وقلتا يد أبيها، ويد أمها من بعد،

فباركها السيد و دونيا خمينا، ومنحاهما الرضا،

وامتطى سيدي والآخرين خيوهم، وتهاوا للمسير،

على جياذ أصيلة، في ملابس زاهية، شاهري السلاح،

يعمر البشر سيدي، ويشاركه البهجة كل تابعه،

وقالت الطير لمن تمنطق سيفه في لحظة سعيدة:

إن زوج بنتي لن يمضي صافيا بلا سكرات،

وماذ يجدي، لقد تزوجنا فعلا، ووقت الندم فات

١٢٦

السيد يرسل مع بنته فيلث مونيوث - الوداع الأخير - السيا

يعود إلى بلنسية - القافلة تصل إلى مولينا، وابن غلبون يصحب

حتى مدينة سالم الأميران يفكران في قتل ابن غلبون.

- «أين أنت يا ابن أخى، أين فيلث مونيوث.

ابن عم بنتى، وتحبها من القلب والروح،

أريدك أن تذهب معها حتى نفس كاربون،

لترى مزارع بنتى وما يملكان من ضياع،

ثم تجيء من هناك بأخبار جديدة إلى القنبيطور».

وقال فيلث مونيوث: «ذلك شيء يسرف من القلب».

وأمام السيد توقف مينايا ألبار هانبيث:

«سنعود سريعاً إلى بلنسية العظيمة يا سيد،

وإذا أراد الله والأب الخالق،

فسوف نذهب يوماً لرؤيتهم فى أراضي كاربون».

- «فى رعاية الله أودعكما: دونيا إلبيرا و دونيا سول،

لتكن أعمالكما دائماً مبعث شرف لنا وفخار».

فردّ صهراه: «تلك هى إرادة الله!».

كانت المشاعر عميقة حين دنت ساعة الرحيل،

بكى الأب، وبكت البنتان، بكوا جميعاً من أعماق القلب،

وبكى معهم كل فرسان القنبيطور.

- «أصغ إلى ابن أخى، أنت فيلث مونيوث،

أذهبوا إلى مولينا وبيتوا ليلتكم هناك،

سألى على صديق المسلم ابن غلبون. وأبلغه

أن يحسن استقبال صهرى، وألا يدع شيئاً من جهده،

وقل له: إننى مرسل بنتى إلى أراضي كاربون،

وما يحتاجان إليه، يقدمه لهما كأفضل ما يستطيع،

وأن يصحبها من هناك إلى مدينة سالم، حباً ق،
 وله عوض كل ما يصنع هدية طيبة منى».

كخلع الأظافر من اللحم كان فراقهما،
 وعاد إلى بلنسية، من في لحظة سعيدة طرق باب الحياة،
 وتابع أميراً كاربون رحلتها،
 وما إن بلغوا شتمرية بنى رزين حتى نزلوها مستريحين،
 ثم عاودوا السير من جديد، وهمزوا خيولهم مسرعين،
 وهامهم الآن في مولينا مع المسلم ابن غلبون،
 وعندما سمع المسلم بقدمهم فاض قلبه سروراً،
 وخرج للقائهم في بهجة غامرة،
 يا إلهي... ياله من وقتٍ يسهر على راحتهم بكل ما يستطيع!

وفي صبح اليوم التالي رافقهم مودعاً،
 وإلى جانبه مائتا فارس من خيرة تابعيه،
 عبروا الجبال التي يسمونها جبال لوثون،
 ثم مروا بمدينة «أربخويلو» ووصلوا نهر شلون،
 وفي المكان الذي يقال له أنسريرا أخذوا إلى الراحة جميعاً،
 وقدم المسلم ابن غلبون هداياه إلى بنتى السيد،
 ولكل واحد من أميرى كاربون جوادا،
 صنع المسلم كل ذلك حباً في السيد القبيطور،
 وما إن رأى الأميران الثروة الهائلة التي عليها ابن غلبون،
 حتى فكراً في الحياة، ولتفيدها بدأ يعدان :
 - «إننا سوف نترك زوجتنا بنتى السيد،

فإذا استطعنا أيضاً أن نقتل المسلم ابن غلبون،
 أصبحت الثروات الهائلة التي يمتلكها لنا معاً،
 وسنحافظ عليها إلى جانب ما نملك في كاربون،
 ولن نستطيع أبداً أن يثار منا السيد القنبيطور».
 وبينما أميراً كاربون يتحدثان بهذه السخافات،
 مسلم من أتباع ابن غلبون، لاتيني اللغة، فهم ما يقولان^(١)،
 فلم يُبق على السرّ وأفضى به إلى ابن غلبون،
 أيها القائد، خذ حذرك من هؤلاء، فانت سيدي.

١٢٧

ابن غلبون يودع الأميرين مهدداً

كان المسلم ابن غلبون شاباً قوياً وشجاعاً،
 فامتطى جواده، في رفقة مائتين من الفرسان،
 وبدأ يلعب السلاح مع رجاله، ثم توقف أمام الأميرين،
 وسمع الأميران من المسلم كلاماً ما يجبان أن يسمعا:
 - «لولا أني أدعكما احتراماً لسيدى ابن بيبار،
 لكان لي معكما شأن عبر العالم يذهب صداه،
 فأردّ بنتي السيد الوقي،
 وأنتم لا تدخلان «كاربون» إلى الأبد».

(١) لاتيني اللغة، أي كان يتحدث الرومانية، وهي عامية مسيحي الأندلس، ومشتقة من اللاتينية، وليست اللاتينية نفسها، لأن هذه كانت قد انحسرت عن السنّ الناس في هذا العصر، ولم تعد أداة الحديث.

ابن غلبون المسلم يعود إلى مولينا متأماً لتعاسة بنتي السيد -
القافلة تدخل مملكة قشتالة - وبنام أفرادها في غابات كوريس -
في الصباح يبقى الأميران وحدهما مع زوجتيهما، ويستعدان لقتلهما
- تضرعات ضائعة من دونياسول - وحشية الأميرين

- قولاً لي، يا أميري كاريون، أي شر لقيتني مني؟
استضفتكما مخلصاً، وأنتم تآمران على قتل،
هنا أدعكم، تاركا لكم، ملعونة خيانتكم،
سأعود الآن، يكفيني رضاكم، يادونيا إلبيرا يادونيا سول،
لا تمنني كثيرا الشهرة التي عليها أميرا كاريون،
نضاء الله وإرادته، سيد العالم كله،
أن يرضى هذا الزواج السيد القنيطور!».
وما إن أكمل المسلم حديثه حتى قفل راجعاً،
وتابع مبارزته بالسلاح وهو يعبر نهر شلون
وكرجل عاقل اثر أن يعود إلى مولينا حيث يقيم،
وبعد رحل أميرا كاريون عن أنسريرا،
يعدون السير طول النهار وعلى امتداد الليل،
تركوا أتبيتنا على يسارهم، صحرة شديدة الصلابة،
وحلقوا وراءهم بعيداً سلسلة جبال مييدس،
وعبر جبال مونتس كلاروس همزوا خيلهم،
على الشلال منهم كانت مدينة جريثا، وعمرها بنو علم قديماً،

والكهوف التي سُجنت فيها «إلفا» من قبل،
تجاوزا سان استيبان على يمينهم وتوقفوا جميعاً يتأملون،
ثم دخل الأميران غابات كورس،
الجبال شاهقة، والأشجار مرتفعة، تعترض أغصانها سير السحاب،
والحيوانات المفترسة طليقة تغدو وتجىء،
ووجدوا بستانا يتوسطه نبع صاقي الماء،
فأمر أميرا كاريون بالتزول ونصب الخيام،
وأخلدوا مع رفقتهم إلى الراحة، فأمضوا الليل هاجعين،
وكل أمير احتوى زوجه بين ذراعيه، ييادها الحب والغرام.
ولكن ما أسوأ ما أقدمنا عيله حين تصرّم الليل وأشرقت الشمس!
أمرا بوضع الكثير مما يحملان على ظهور البغال،
ويطى الخيام التي اتخذوها سكنا سحابة الليل،
وأمرا الحاشية كلها بأن تمضى، وتخلّف عن المسير،
ذلك ما أمر به أميرا كاريون،
لم يتخلف معها أحد من النساء أو الرجال،
غير زوجتيهما فحسب، دونيا إلبيرا و دونيا سول،
لأنهما يريدان أن يبقيا معهما وحيدتين،
أخيراً رحلوا كلهم، وتخلّف الأربعة وراء الجميع،
وفكر أميرا كاريون في شرور كثيرة:
«أصغيا جيداً يا زوجتي، دونيا إلبيرا ودونيا سول:
أنتا هنا، في هذه الجبال الموحشة المسبعة، على موعد مع العذاب،
سزحل اليوم وترككما وحيدتين،

ولن يكون لكما أبدا نصيب في أرض كاريون،
وأخبار كما هذه سوف تبلغ السيد القبيطور،
وبهذا نثار منه، ننتقم لقصة الأسد الجسور».

هناك نزعاً عنها العباءات والملابس،
وتركاهما عاريتين إلا من قيص وإزار،
وحمل الخائنان، وقد اسود ضميرهما، الكلاب،
يحملان في أيديهما أحزمة قوية وخشنة،
وعندما رأت السيدتان هذا تحدثت دونيا سول:

«بحق الله نرجوكما، دون ديججو، ودون فرناندو،
معكما سيفان قويان، وحذهما بتار،
أحدهما يسمى «كولادا» والآخر يطلقون عليه «تيثون»،
فاقطعا رأسينا، نموت شهيدتين نحن الاثنتين،
وتصبح قستكما حديث المسلمين والمسيحين، حكاية الناس أجمعين،
وما ستفعلان بنا لا نستحفه نحن. لا.
وارحمانا مما تبيتان من نوايا سيئة، لا تكونا قاسيين،
وإذا جلدتمانا لطخ العار شرفكما إلى الأبد،
وستدفعان الثمن مواجهة قضائية، أو في مجلس البلاط».

وذهبت تضرعات السيدتين عبثاً، لم تُجدهما شيئاً.
بدأ الأميران يجلدان زوجتيهما
قيدهما بالأحزمة دون شفقة أو رحمة،
وثبتوا الكلاب الحادة منها، في الموضع الأكثر إبلاها،
ومزقا من السيدتين كليهما فصبيها واللحم،

فتفجر دمهما صافيا، ورؤى كل الإزار،
واحست السيدتان بغصة الألم في أعماق القلب.
يا له من حظ عظيم لو أراد الخالق،
أن يطلّ فجأة السيد القنبيطور!
جلداهما طويلا، ثم تركاهما فاقدت الشعور،
وكل ملابسهما، الأزر والقمصان، غارقة في الدماء،
وأحس أميرا كاريون بالتعب من مواصلة الجلد،
وكان بينهما سباق شديد: مَنْ يجلد أفضل من الآخر،
ولم تستطع دونيا إلبيرا ولا دونيا سولا أن تنطقا بكلمة واحدة،
وأخيراً تركهما أميرا كاريون في الغابة لتموتا وحيدتين.

١٢٩

الأميران يتركان زوجتيهما

جرّداهما من ملابسهما، وانتزعا كل ما يحملان من فراء،
وتركاهما بين الحياة والموت في قميص وإزار،
طعاماً لطيبور الجبل، ولما في الغابة من الحيوان،
تركاهما تموتان، تذكر، لا لكى تنعما بالحياة،
ياله من حظ، لو أطل في هذه الساعة السيد روى دياث!

١٣٠

تركهما أميرا كاريون لتموتا،
ومامن واحدة فيها تستطيع الكلام،

ورحل الأميران، عبر الجبال، يتبادلان الزهور والابتسام.
 «لقد ثأرنا الآن لزواجنا،
 لم تعودا تصلحان لنا، كلا... ولا حتى عشيقات راجيات،
 لانصلحان زوجتين لنا، ليستا من بنات العائلات،
 وبما فعلنا نكون قد انتقمنا لما في قصة الأسد من سخريات!

١٣١

فيلث مونيوث يشك في الأميرين - ويقفل راجعا ليبحث عن بنتي
 السيد - فيلث ينمشهما ويحملهما على جواده إلى سان استيبان دي
 غرماج - السيد يعلم بما تعرض له من إهانة - مينايا يرحل إلى
 سان استيبان ليعود بالسيدتين - لقاء مينايا مع ابنتي عمه

تابع أميرا كاربون رحلتها مزهوين،
 ولكني الآن أريد أن أحدثكم عن ذلكم فيلث مونيوث،
 وكان ابن أخ السيد القنيطور،
 لقد أمراه بأن يتقدم، أمر لم يحظ منه بالرضا أو القبول،
 وعبر الطريق حيث يمضي خفق قلبه بهاجس غريب،
 فانتحى جانباً، ممتطياً صهوة جواده، مبتعداً عن الآخرين،
 واختق فيلث مونيوث في جبل معشوشب،
 يرى ماذا يحدث لبنتي عمه،
 يعرف ماذا يصنع بها أميرا كاربون،
 فجأة رأهما قادمين، وسمع ما يدور بينهما من حديث،
 بر أنها لم يرياه ولا شكاً أنه يختنق هناك،

واعلم جيداً ، أنها لو عرفاه لما استطاع أن يفلت من الموت ،
 همز الأميران جواديهما وانطلقا في طريقهما ،

ومتعقباً آثارهما إلى الوراء مضى فيلث مونيوث ،

فوجد بنتى عمه كلتيهما ، بين الحياة والموت ،

وصاح بهما : « ابنتى عمى ، ابنتى عمى ! » ، ثم ترَجَّل ،

ربط فرسه من شكيمته في شجرة ، ونحوهما تقدم مسرعاً ،

« يا ابنتى عمى ، يا ابنتى عمى ، دونيا إلبيرا ودونيا سول ،

يا لقبح ما صنع أميرا كاربون !

لن يفلتا من العقاب جزاء ما ارتكبا بإذن الله . »

ثم عاونهما على أن تستردا وعيهما ،

كانتا فاقدت الشعور تماما ، لا تنطقان ولا بكلمة ،

فراح يناديهما وقلبه ممزق ،

ويصيح بهما : « ابنتى عمى ، دونيا إلبيرا ودونيا سول . .

استبقظا ابنتى عمى ، انفضا بحق الخالق ،

حيّاً بنا ، والدنيا نهار ، قبل أن يظلم الليل ،

حتى لانصبح طعاماً لما في الجبل من حيوان مفترس ،

وشيئاً فشيئاً استردتا وعيهما ، دونيا إلبيرا و دونيا سول ،

فتحنا عيونهما ورأنا فيلث مونيوث .

- « تماسكا ابنتى عمى ، حُباً في الله !

إذا لم يجدان أميرا كاربون في القافلة ،

سريعاً ومتحمسين ، سوف يبحثان عنى في كل مكان ،

وإذا لم ينقذنا الله فسوف نموت هنا جميعاً . »

وفي ألم مرير تكلمت دونيا سول :
 « سوف يكافئك، يا ابن عمي، عليه أبونا القنبيطور،
 حباً في الخالق أعطني قليلا من الماء » .
 وبقبعة كان يحملها فيلث مونيوث،
 جديدة ولاعبة، جاء بها من بلنسية،
 اغترف من الماء ما استطاع، وقدمه لبنتي عمه
 كانتا منهكتين، تحاملتا كثيراً، لتشرباً من الماء،
 ترجأهما الجلوس طويلا، فاستجابا له بعد جهد،
 وأخذ يشجعهما قليلا قليلا، ويرفع من روحهما،
 حتى إذا تحستا، أخذهما كلتيهما
 بين ذراعيه، وسريعاً وضعهما فوق فرسه،
 وغطأهما بعباءته هما الاثنتين،
 ثم أخذ فرسه من شكيمته ومضى بهما،
 وعبر غابات كوريس كانوا ثلاثهم فحسب،
 وبين الليل والنهار تركوا الجبال، وحلّفوها وراءهم،
 وأخيراً بلغوا في طريقهم نهر دوبره،
 وهناك تركهما في قلعة دونيا أراكا،
 وذهب فيلث مونيوث إلى سان استبان دي غرماج،
 فالتق فيها مع ديجو تيبث، واحد من أتباع ألبار هانيث،
 وعندما سمع القصة حزن لها من القلب،
 ثم أعد ركائب وملابس ذات قيمة ومناسبة،
 وذهب ليصحب دونيا إليرا ودونيا سول،

وجاء بهما إلى سان استيبان، وفيها نزلاً،
 وقام على خدمتهما بما استطاع، لم يترك من جهده شيئاً،
 إن سكان سان استيبان دائماً أناس شرفاء،
 ما إن عرفوا ما حدث حتى أسفوا له من القلب.
 وأسرعوا يقدمون لبنتي السيد كل ما يستطيعون،
 وظلنا في المدينة إلى أصبحنا سليمتين،
 بينما أميرا كاربون يمضيان في رحلتها مزهوتين،
 وعبر تلك الأراضي شاعت القصة وعرف الناس الخبر،
 وأحسَّ الملك الطَّيب دون الفونسو بالحرج عميقاً ومخزناً.
 وذهب الرسل إلى بلنسية المدينة العظيمة،
 وعندما أخبر سيدي القنبيطور بما حدث،
 تأمل الأمر طويلاً وفكر؛

ثم رفع يده، وأمسك بلحيته :

-«شكراً للمسيح، سيّد العالم،

أما وقد ارتكب هذا الجرم أميرا كاربون،

فحق هذه اللحية التي لم يستطع مخلوق أبداً أن يمسه،

لن يحقق أميرا كاربون ما نوباه من إهانتى،

وسأزوج بنتى بمن هما أفضل منها».

غمر سيدي وكل بلاطه ألم عميق،

وحزن ألبار هانييث من أعماق القلب والروح،

ورحل مينايا ألبار هانييث، ومعه بير برمودث،

ورافقهما مرتين أنتولينيث، البرغشى الوفى،

ومائتا فارس أمر السيد أن يكونوا معهم،
 وأمرهم أن يواصلوا السير ليل نهار، وشدّد عليهم في الأمر،
 لكي يحضروا بنتيه إلى بلنسية العظيمة،
 ودون تأخير، وضعوا ما أراد سيدهم موضع التنفيذ،
 ساروا مسرعين طوال الليل حتى الفجر،
 وصلوا غرماج، قلعة قوية متينة البنيان،
 وللحق استراحوا فيها ليلة واحدة،
 وحتى سان استبان وصلت الأخبار،
 بأن مينايا وصل ليأخذ بنتي عمه معه،
 وأهل سان استبان، وهم رجال أوفياء،
 استقبلوا مينايا، وكل الفرسان الذين رافقوه،
 وفي هذه الليلة قدموا لمينايا خير ما عندهم من هدايا،
 فلم يقبل منها شيئاً، ولكن شكرهم عليها كثيراً:
 «شكراً، يا رجال سان استبان، أيها العاقلون،
 على ما قدمتم لنا من مساعدة ساعة الحاجة،
 يشكركم عليه كثيراً، من يقم هناك، سيدي القنبيطور،
 وأمامكم، هنا بينكم، أود أنا أيضاً أن أشكركم عليه،
 وأرجو إله السماء أن يعوضكم خيراً منه».
 أحس الجميع بسرور بالغ لما وجدوا من شكر وعرفان،
 وعندما انتشر الليل أوى كل واحد إلى مضجعه،
 وذهب مينايا إلى حيث يرى بنتي عمه،
 فيه ركزتا أبصارهما، دونيا إلبيرا و دونيا سول:

- «نشكرك كثيراً عليه، كما نشكر الخالق نفسه،
واشكره أنت أيضاً، لأننا مازلنا على قيد الحياة».
- «خلال أيام الراحة وستمضيانها في بلنسية العظيمة،
ستكون الفرصة مواتية لتحكيانا قصة هذه المأساة».

١٣٢

مينايا مع بنتى عمه يرحل من سان استبان - السيد يخرج للقائهم

بكو من عيونهم، السيدتان و ألبار هانيث،
حينئذ بدأ بير برمودث يحدثها على هذا النحو:
«يا دونيا إلبيرا، ويا دونيا سول، لا تشغلا كثيراً،
لقد عدتما صحبتيين وسالتيين دون أى أذى،
فقدتما زواجاً طيباً، زواج أفضل منه فى الطريق،
وستران اليوم الذى نثار لكما فيه!».

قضوا الليل هناك، وكانوا جميعاً فرحين،
وفى صبح اليوم التالى عاودوا السير من جديد،
وأهل سان استبان حوطم يهرولون مودعين،
رافقوهم حتى نهر «أمور»، وكانوا برفقتهم مسرورين،
هناك ودعوهم، ثم قفلوا إلى بيوتهم عائدين،
ومضى مينايا مع السيدتين مسرعاً ينهب الطريق،
عبروا القصيبة، وعلى اليمين تركوا غرماج،
واتجهوا نحو «بادوا دى رى»، وبعدها واصلوا المسير،
وفى قرية «برلانجا» قضوا الليل هاجمين،

في صباح اليوم التالي بدأوا الرحلة مبكرين،
 ثم أمضوا الليل فيما يدعى مدينة سالم مستريحين،
 حتى إذا طلع الفجر قطعوا المسافة بينها وبين مولينا في نهار،
 وفيها المسلم ابن غلبون سوف يفرح بهم من القلب،
 خرج للقائهم راغباً، ومعه جمع من تابعيه،
 وحُبا في سيدي أولم لهم عشاء فاخراً،
 تحركوا يقصدون بلنسية، يذهبون إليها مباشرة،
 وبلغت الرسالة من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
 فامتطى صهوة جواده وخرج للقائهم،
 فياض البشر خرج إليهم وهو يلعب بالسلاح،
 سارع سيدي إلى احتضان بنتيه،
 قَبَلهما كلتيهما، وملأت البسمة شفثيه :
 «وصلتما، بنتي؟ حفظكما الله من كل سوء!
 أنا قبلتُ تزويجكما بنتي، ما عرفت كيف أقول : لا.
 والآن أدعو الخالق، ذلك الذي في السماء،
 أن يوفقكما إلى الزوج الصالح، عندما تعودان إلى الزواج،
 فيما يتصل بصهرتي أميرى كاريون، يا إلهي، مكنتي من الانتقام!».
 قبلت البنتان يد أبيهما،
 وهم يلعبون بالسلاح، عادوا إلى المدينة مبتهجين،
 وأمهما، دونيا خمينا، تظل الفرحة من عينيها، رأتهما قادمتين.
 لم يرد أن يتأخر أكثر، من في لحظة طيبة جاء إلى الحياة،
 يريد أن يعث برسالة إلى ألفونسو ملك قشتالة.

السيد يرسل مونيو جوستيوث يطلب من الملك القصاص - مونيو
يجد الملك في سهاجون ويعرض عليه الرسالة - الملك يعد
بالقصاص

- « أين أنت، مونيو جوستيوث، يا تابعى الوفى؟

في لحظة طيبة ربيتك في حاشيتي أيها الطيب جوستيوث!

احل رسالتى هذه إلى ألفونسو ملك قشتالة،

راجياً منه أن تقبل لى يده، من القلب والروح،

- « أنا كتابع له، وهو سيدى -

الإساءة التى ألحقها بى أميراً كاربون،

سوف تُحزن من الملك القلب والروح،

هو من زوج بنتى، لما شئت اعتراضاً.

والآن وقد تركاهما مهانتين بلا شرف،

فإن الإهانة التى ارتكباها، إذا كانت تمسنا شيئاً،

فكلها، صغيرة أو كبيرة، موجهة إلى سيدى.

حملاً ثرواق، ثروات هائلة ونادرة،

شئ، إلى جانب ما أشرت من إهانة، عمق ألامى.

أطالبكم بدعوتها إلى مواجعتى في جمع تصائى، أو أمام مجلس البلاط،

لأخذ منها بحقى، أميرى كاربون،

لأن الحقد فى أعماق قلبى كبير».

رحل مونيو جوستيوث على ظهر جواده مسرعاً،

ومعه فارسان، يقومان على خدمته كما يريد،
وعدد من تابعيه رباهم يقومون على خدمة الخيل،
تركوا بلنسية وأغذوا السير ما واناهم الجهد،
واصلوا الرحلة ليل نهار دون راحة،
فوجدوا الملك دون ألفونسو في مدينة سهاجون،
إنه ملك قشتالة، وأيضاً ملك ليون،
وملك أستورارث، وعاصمتها سان سلفادور،
وحتى في شنت ياقب نفسها، كلهم يعترفون به سيّداً،
وحتى كونتات جليقية، يدخلون في زمرة ومن تابعيه،
وما إن ترجل ذلك المدعو مونيو جوستيوث،
حتى دعا القديسين خاشعاً، وتضرع إلى الخالق،
ثم توجه إلى القصر حيث مجلس البلاط،
مضى إليه، وفي رفقة الفارسان، رجلاً من خيرة تابعيه.
مرّ بين رجال الحاشية، وانتهى حيث المجلس،
فما إن رآهم الملك، حتى ثبت بصره في مونيو جوستيوث،
ونفض واقفاً، يود استقبالهم محتفياً،
في حين أن مونيو ورفاقه جنوا أمام الملك ألفونسو،
قبل قدميه مونيو جوستيوث، ثم نفض واقفاً:
- «الإجلال لمن ممالك كثيرة بايعته سيّداً!
السيد القشيطور يقبل يديكم والقدمين،
إنه تابعكم، ويعترف بكم سيّداً عليه،
لقد زوجت بنته من أميرى كاربون،

كان زواجاً مشرفاً، فهكذا أردتموه،
 وأنتم أعلم بالشرف الذي حزنه من هذا الزواج،
 وكيف أهاننا أمراء كاريون،
 أساءا بشدة إلى بنتى السيد القنبيطور،
 جلداهما بخزى، وتركاهما دون شرف عاريتين،
 تخليا عنها في غابات كوريس، مغشياً عليهما بين الحياة والموت،
 تحت رحمة طيور الجبل الجارحة، وحيواناته المفترسة،
 ولكنها الآن سليمتين في بلنسية العظيمة،
 ولهذا يقبل بديكم، تقبيل التابع للسيد،
 ويطلب منكم دعوة أميرى كاريون إلى مواجهة قضائية أو في البلاط،
 لقد أهنا في شرفنا، وإهانتكم بعد أشد،
 ويرجوكم أيها الملك أن تشاركوه آلامه، وأنتم تعرفون كل شيء،
 وأن تمكنوا سيدي من أميرى كاريون، يأخذ بحقه منها،
 وصمت الملك طويلاً، وفكر عميقاً،
 «أقول لك الحق، إن الأمر أحزنى من القلب،
 وفيما تقول كل الحق أيضاً، مونيو جوستيوث،
 أنا زوجتُ بنتيه من أميرى كاريون،
 قتت به لصالحهما، مفكراً في مستقبلهما، متمنياً لهما الخير،
 لكم تمنيت اليوم أن هذا الزواج لم يحدث أبداً،
 إن أقاسم السيد آلامه، ومن القلب،
 وسأعاونه أن يأخذ بحقه وليساعدني الخالق،
 ما أبعد ما حدث عن الخيال والتفكير!

سوف يمضى رسلى عبر كل مملكتى،
 ينادون باجتماع مجلس البلاط فى طليطلة،
 وسيدعى إليه كل الكونتات والأمرء،
 وأصدرت أمرى بأن يحضره أميرا كاربون،
 لكى يردا قانوناً على مطالب السيد القنبيطور.
 قل له ألا يأسى كثيراً، لأن سارقب الأمر مهتاً».

١٣٤

الملك يدعو مجلس البلاط فى طليطلة

قل للقنبيطور، من فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،
 من الآن، وحتى سبعة أسابيع، أن يستعد مع تابعيه،
 ليأت إلى طليطلة داخل الأجل المحدد،
 لقد دعوت مجلس البلاط إلى الاجتماع حباً فى السيد،
 سئ عليهم جميعاً، وألا يشغلهم من الأمر شاغل،
 فمن كل ما حدث سيخرجون شرفاء منتصرين».
ودعهم مونيوجوستيوث، وبدأ رحلته عائد إلى السيد،
 فالملك، كما قال، سوف يتولى متابعة الأمر بنفسه،
 لا شىء يقف دون ألفونسو القشتالى وما يريد،
 بعث برسائل إلى ليون وشانت ياقب،
 وإلى البرتغاليين، وأخرى كثيرة إلى جليقية،
 وإلى نبلاء كاربون، وإلى الفرسان القشتاليين،
 يخبرون الجميع بأن مجلس البلاط سينعقد فى طليطلة،

بعد ستة أسابيع، تلتقون هناك مجتمعين،
ومن لا يذهب إلى الاجتماع، لن يُعد من رعايا الملك المخلصين،
وهكذا عبر كل أراضيه، جميعاً أخذوا يتدبرون الأمر مفكرين،
مقررين أن يطيعوا الملك، وألا يعصوا له أمراً.

١٣٥

أميراً كاريون يرجوان الملك عبثاً أن يعدل عن دعوة مجلس البلاط
- اجتماع المجلس - السيد آخر من وصل - الملك يخرج للقاءه

أحسن بالهلع أميراً كاريون، وشعرا بالذل،
من مجلس البلاط الذي دعا الملك إلى عقده في طليطلة،
وامتلاً خوفاً من أن يحضره سيدي القنبيطور،
فتشاورا مع أسرتهما عن هذه القضية الخطيرة،
ورجواً الملك أن يقبل عذرهما عن حضور الاجتماع،
فقال الملك: «لن أقبله، ذلك شيء لم يأمر به الله!
ويجب أن يحضر اجتماع البلاط سيدي القنبيطور،
وأن يطالب بحقه، فقد أهنتاه أنتما الاثنان،
ومن لا يقبل هذا، أو يتخلف عن الاجتماع،
فليخرج من مملكتي، وسأنزع عنه أفضالي ورضاي».
عرف أميراً كاريون أنه لا مناص من تنفيذ أمر الملك،
فاجتمعا إلى أقاربهم الكثيرين يتدارسون الأمر،
حضر الكونت دون غرسيية، وشارك باهتمام فيما دار من نقاش،
كان عدو السيد اللدود، ويفضل دائماً إهانته وأذاه،

سمع الأميران نصائحه، ووعيا ما قيل في الاجتماع .
انتهى الأجل، وحن الاجتماع، فذهبا إلى البلاط،
وكان من أوائل الحاضرين الطيب الملك دون ألفونسو،
ثم الكونت دون إنريك والكونت دون رامون،

- وهذا الأخير أبو الإمبراطور الطيب -

ووصل الكونت دون فرويلا، وبعده الكونت دون بربون.
وجاء خبراء القانون من كل أنحاء المملكة،
ومن قشتالة جاء خير من فيها :

الكونت دون غرسية، ويدعى « الكريسو دي جرينون »
وألبار دياث حاكم مدينة « أوكا »

وأنسور جنثاليث، و جثالبو أنسورث،

ويدرو أنسوريث، إذا كنت تعلم، هناك يقترب من الاجتماع،
وأخيراً جاء دون ديجو و دون فرناندو، حضرا معاً،

في جمهرة كبيرة من أتباعهما، وفي جانب جلسوا متوثبين،
وقد بيتوا النية على إهانة سيدي القنبيطور.

فرسانٌ كثيرون جاءوا من كل حذب وصوب.

وحتى اللحظة لم يصل بعد، من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،
انزعج الملك من التأخير، وكان ضائقاً به،

ولكن أخيراً، في اليوم الخامس، وصل سيدي القنبيطور،
فأرسل ألبار هانييث يتقدمه،

لكي يقبل يدنى الملك سيده

ويعلمه، بأنه في هذه الليلة سيراه،

لما إن عرف الملك حتى سر من القلب،
 وفي الحال امتطى صهوة فرسه، وخرج مع الحاشية
 لكي يلتق مرحباً من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة.
 جاء السيد ورجاله، في خير ما عندهم من خيل وثياب وسلاح،
 والجيش الذي يصحبه جدير به كقائد،
 وما أن وقع عليه نظر الملك دون الفونسو،
 حتى ترجل السيد القنبيطور عن جواده، في الحال،
 ثم تقدم خاضعاً، أراد أن يقدم لسيدة المزيدي من التشريف،
 وما إن رآه الملك حتى تحدث إليه في الحال :
 « بحق القديس إسيديورو دع هذا لا تفعله،
 اركب جوادك يا سيد، وإلا سببت لي الكثير من الضيق،
 يكفي سلاماً أن تتبادل القبل، من القلب والروح.
 ما أملك أنت، أحسستُ أنا بجرحه في أعماق القلب،
 لعل الله ينتقم اليوم لشرفك، فتأخذ بحقك ، في مجلس البلاط،
 ورد سيدي، القنبيطور الطيب، هامساً : آمين !
 ثم قبل الملك في يده أولاً، وفي فمه من بعد.
 - « حمداً لله، على أن استطعت أن أراكم سيدي،
 خاضعاً أمامكم، في حضرتكم، وأمام الكونت رامون،
 وأمام الكونت دون إنريك، وكل الذين هنا،
 فليحفظ الله أصدقاءنا، وأنت قبل الجميع أيها الملك؛
 زوجي، دونيا خمينا، سيدة وفيه،
 تقبل يديكم، هي وبتاي الاثنان،

جميعاً نرجوكم سيدي أن تحسوا ما لحقنا من إهانة وعار،
فرد الملك : « ذلك ما أفعل، يعلم الله ».

١٣٦

السيد لا يدخل طليطلة - ويمضي الليل متعبداً في سان سرياندو

عاد الملك إلى مدينة طليطلة،

ولم يرد السيد أن يعبر نهر تاجو في هذه الليلة :

« أطلب منكم أيها الملك فضلاً، حفظكم الله !

أسرع سيدي، مع حاشيتك، وعُدْ إلى المدينة،

وأنا مع رجالي، سنقضي الليل في سان سرياندو.

بقية رفاق سيصلون الليلة.

ومعهم سنبقى في هذا المكان المقدس متعبدين،

وغداً صباحاً سوف أنتقل إلى المدينة؛

سأذهب إلى البلاط، وأكون فيه قبل الغداء.».

فقال الملك : « ذلك شيء يسعدني حقاً»

عاد الملك دون ألفونسو إلى طليطلة.

وأقام سيدي روي دياث في سان سرياندو.

أمر بإضاءة المذبح وإشعال القناديل،

أراد أن يمضي الليل ساهراً يتعبداً في هذا المكان المقدس،

يرجو الخالق ويناجيه سراً في صفاء،

وما إن جاء الصبح حتى تهباً الجميع للمسير.

استعداد السيد في سان سرياندو لكي يذهب إلى البلاط - السيد يذهب إلى طليطلة ويدخل البلاط، الملك يقدم له مقعداً على منصته إلى جواره. السيد يعتذر - الملك يفتح الجلسة - ويعلن السلام بين المتخاصمين - السيد يعرض حقه، ويطلب بالسيفين «كولادا» و«تيتون» - أميرا كاربون يردان السيفين - السيد يعطيها لبدرو برمودث ومرتين أنتولينيث - طلب آخر للسيد: ما دفعه من أموال لتجهيز بنتيه - الأميران يواجهان صعوبة في دفعها

مع الفجر سمعوا القداس وأنشدوا ترانيل الصبح،
وأنهوا صلواتهم قبل أن تطلع الشمس،

ثم قدموا عطاياهم، هدايا كلها من الغالي الثمين.

- «مينايا ألبار هانييث!... أنت ساعدى القوى،

أنت والمطران دون خرونيمو؛ تكونان معى فى صحبى؛

وأيضاً بدرو برمودث، ومثله مونيو جوستيوث،

ومرتين أنتولينيث، ذلك البرغشى ذو الوفاء،

وألبار ألباروث، ثم ألبار سلفادورث،

ومرتين مونيوث، من فى لحظة سعد جاء إلى الحياة،

ويأتى معى مال أنداء، رجل عالم فى القانون،

ثم جليندو غرسية، الطيب القادم من أرجون،

ونكمل العدد مائة، من خيرة أتباعى الأوفياء،

تحت الدروع ارتدوا ملابس مريحة، كى لا تحسوا وطأة الحديد»
وعليها صدار أبيض، ساطع مثل ضوء الشمس،
وفوق الصدار الفراء الفاخر، والعباءات الزاهية،
ولتخفوا أسلحتكم.. شدوا أحزمتكم جيداً،
ثم خبئوا السيوف تحت العباءات، مصقولة وتارة،
وعندما يتم كل شيء على هذا النحو أتتحم مجلس البلاط،
لكى أطلبه بحق، وأبسط أمام الجميع وجهة نظري،
فإذا أحب أميراً كاريون النزال،
فع هؤلاء المائة من فرسان، سوف ألقاهما دون أدنى خوف».
وفى صوت واحد ردوا جميعاً: «ونحن ياسيد نتظر ذلك اليوم».
ثم أسرعوا إلى سلاحهم يستعدون على نحو ما أمرهم به.
ودون أن يتوقف؛ من فى لحظة سعيدة طرق باب الحياة،
لبس جواربه، ونسجت من خيوط رقيقة،
وانتعل حذاءه، وصناعته جميلة ومتينة ودقيقة،
وارتدى قميصاً أبيض ناصعاً فى مثل ضوء الشمس،
أزراره بعضها من الذهب، والبعض الآخر من الفضة،
وأكمامه تمسك بالمعصم مضبوطة، استجابة لما أمر به،
والصدار الذى ارتداه فوقه من حرير نادر الصنع،
وماحلي به من ذهب يلمع بريقه عبر كل الجهات.
وعليه جلد قرمزي، حُلَاه صيغت من ذهب،
على نحو ما يلبس دائماً سيدي القنبيطور.
ثم غطى رأسه بكوفية، ذات نسج رقيق:

حُلِّيتْ أطرافها بالذهب، في زخارف رُسِمتْ بقرن،
 لكي تحمي رأس الطيب السيد القنيطور،
 أما لحيته وقد استطلت كثيراً فقد أحكم سترها،
 كذلك ارتدى ملابسه، ليكون مهياً لكل أمر،
 وفوق الجميع عباءة فضفاضة غالية الثمن،
 في هيئته هذه حاز إعجاب كل من رآه،
 ومع المائة فارس الذين صحبوه تهباً للمسير،
 امتطوا الخيل وخرجوا من سان سرباندو مسرعين،
 نحو مجلس البلاط كانت وجهة السيد،
 وأمام الباب الخارجى ترجل ماهراً وقوياً،
 ودخل سيدي مع كل رجاله، وقورا وجادا،
 هو في الوسط، وحوله الفرسان المائة،
 وعندما رآوه داخلا، من في لحظة سعد طرق باب الحياة،
 نهض واقفا الملك الطيب دون ألفونسو،
 ومثله صنع الكونت دون إنريك والكونت دون رامون،
 وهكذا، ليكن في علمك، كل من في المجلس تابعوا سيدهم.
 وفي إجلال بالغ، استقبلوا من وُلد في ساعة طيبة.
 لم يرد أن ينهض غرسية أوردونييث، المدعو «كريسو دي جرانيون»،
 ولا الذين جاءوا عصابة في حاشية أميرى كاريون.
 وأخذ الملك سيدي بكلتا يديه :
 « تعال هنا، اجلس إلى جانبي، أيها القنيطور،
 على هذه الأريكة، بعض ما أرسلت لي من هدايا،

إذا كان وجودك قد ألم البعض فأنت أرفع منا قدرا». وألقى فاتخ بلنسية كلمات يشكر بها الذين شرفوه: «ابق مكانك، لا تتحرك في أريكتك، فأنت ملك وسيد، هنا سأجلس أنا، مع رجالى هؤلاء»، ما قاله السيد، أبهج ومسّ منه شغاف القلب. ثم جلس السيد على أريكة مستديرة، وحوله المائة فارس أحاطوا به يحرسونه. وجميع الذين حضروا مجلس البلاط ركزوا أبصارهم في القنيطور، يتأملون لحيته الغزيرة، وقد استطلت فغطاها حفاظا عليها، وكل تصرفاته ومواقفه توحى بأنه رجل فيما يفعل أو يقول، ولم يستطع أميرا كاربون أن ينظرا إليه خجلا. حينئذ نهض واقفا الملك دون ألفونسو؛ «اسمعوا أيها الفرسان، حفظكم الخالق! دعوت مجلس البلاط مرتين منذ أن توليت الملك، الأولى كانت في مدينة برغش، والثانية في كاربون، أما الثالثة، فنعقدتها الآن في طليطلة، وأنتم شهودها، حُبًا في سيدي، من في لحظة سعد طرق باب الحياة، لكي يأخذ بحقه من أميري كاربون. لقد ألحقا به أذى كبيرا، وأهانا شرفه كما تعلمون، وسيكون القاضيان: الكونت دون إنريك والكونت دون رامون، وعدد آخر من الكونتات، ليسوا من عصابة أميري كاربون، أصفوا إلى كلكم جيدا، فأنتم رجال فاهمون،

نريد أن نحكم بالقانون، لا أودّ أن يلحق الظلم أئى مخلوق،
وسنلزم الجانيين بالسلام منذ اليوم،

وأقسم لكم بسان إسيدورو أن من يشهر السلاح في بلاطى
سوف أنفيه من مملكتى، وأحرمه من أفضالى.

إن سيدى القنيطور سيتقدم يطلب حقه،

وكما نعرف يجب أن يرد عليه أميرا كاربون.»

قبل سيدى يد الملك، ثم نهض واقفا:

«أشكركم كثيرا، كسيد وملك،

لأنكم دعوتهم مجلس البلاط هذا حبا ق،

إليكم حقوقى التى أطالب بها أميرى كاربون:

أن يتركا بنتى أمرًا لا يمس شرفى،

لأنك أيها الملك من زوجها؛ وتعرف ما يجب أن تقوم به،

ولكن عندما تركا بلنسية العظيمة، ومعها بنتاى،

وكنت أحب صهرى من الروح والقلب،

أعطينها سيفى النادرين، «كولادا» و«تيثون»،

- وقد غنمتها فى معاركى فارسا ورجلا -

ليزادا بها شرفا، يضعانها فى خدمتكم.

وعندما تركا فى غابة كوريس بنتى إلبيرا وسول.

قطعا أوامر مابيننا من ود، وفقدا فى قلبى كل حب،

فليردا إلى إذن سيفى، فلم يعودا صهرى بعد.»

حينئذ رد القضاة: «معك الحق فى كل ماقلت.»

فرد الكونت دون غرسية: «سنعطى رأينا فيما قال.»

في هذه اللحظة خرج أميرا كاريون، وانتحيا جانبا،
 ومعهما كل أقربائهما، والعصبة التي جاءت معها،
 في عجلة حاولوا أن يركزوا وجهة نظرهم :
 « بالرغم من الجمائل الكبيرة التي خصنا بها السيد القنبيطور،
 إذا لم يطالبنا اليوم بما لحق بنتيه من إهانة،
 فإن دون ألفونسو يمكن أن يكون خير وسيط،
 نعطيه سيفيه، ولم يطلب أكثر منها شيئا،
 فإذا أصبحا معه بين يديه، رحل وقال لمجلس البلاط : وداعا !
 لم يعد له أي حق آخر يطالبنا به هذا السيد القنبيطور،
 وعندما انتهيا إلى هذا الرأي عادوا للاجتماع :
 « رضاك أيها الملك دون ألفونسو، فأنت سيدنا !
 لا نستطيع أن ننكر عليه ما قال، وسنعطيه سيفيه،
 لأنه طلبها ملحاً، شديد الرغبة في استرجاعها،
 ستقدمها له سريعا، وفي مجلسكم أمام ناظريك ». .
 أخرج الأميران السيفين، « كولاذا » و « تيشون »،
 ووضعاهما بين يدي الملك سيدهما،
 وعندما نُزع السيفان من غمديهما توهج البلاط بريقا،
 فقد كان مقبضاهما وقائماهما من الذهب الخالص،
 وغمرت موجة من الإعجاب كل الفرسان الذين في مجلس البلاط.
 نادى الملك سيدي، وأعطاه السيفين،
 فتسلمهما، وقبل يدي الملك،
 ثم عاد إلى أريكته، تلك التي أارقها من قبل.

أمسك بها بين يديه، وراح يتأملها صامتاً،
لا يستطيعان تبديلها، فهو يذكر جيداً ما كانا عليه،
غزت كل جسمه بهجة غامرة، وراح يضحك من القلب،
ثم رفع يده، وأمسك بلحيته :

« بحق هذه اللحية، ولم يستطع أن يمكس بها مخلوق،
إننى سوف أنتقم لكما، دونيا إلبراء، ودونيا سول ». .
ونادى بابن أخيه دون بدرو، باسمه ناداه،
وماذا ذراعه أعطاه السيف « تيثون » :

« خذها ياابن أخى، معك سيكون فى يد خير سيدّ،
وبعدنا نادى مرتين أنتولينيث، ذلك البرغشى الرقى،
ومرة أخرى ماذا ذراعه أعطاه السيف الثانى « كولاذا » :
« خذها مرتين أنتولينيث، ياتابعى المخلص .

خذ « كولاذا »، لقد رجته أنا من فارس نبيل،
من رامون برنجير حاكم برشلونة الكبير،
ولهذا أعطيه لك، لتعنى به، وتحافظ عليه أنت،
أعلم أنه إذا حدث شىء، أو جاءت المناسبة،
فستعرف كيف تنتصر به شريفاً وشجاعاً » .

فقبل مرتين يذ السيد، وتلقى منه السيف،
ثم نهض واقفاً سيدى القنبيطور :

« شكراً للخالق، ولكم سيدى وملكى !

لقد ردّا إلى سيفى « كولاذا » و « تيثون »،

ولكن هناك شكوى أخرى ضد أميرى كاربون :

عندما تركا بلنسية موَدعين مع بنتى الحبيبتين،
 أعطيتها ثلاثة آلاف مارك، من الذهب والفضة خالصين،
 هذه العطايا من جانبي، قابلاها بالنقيض،
 فليرداً إلى أموالى، فلم يعودا صهرى بعد».
 آه لو رأيت تشكى، وسمعت تعلّلات، أميرى كاريون!
 وقال الكونت دون رامون: «رُداً: نعم أولاً».
 حينئذ ردّ أميراً كاريون:

لقد قدمنا السيّفين إلى السيد القنيطور،
 حتى لا يطلب منا مزيداً، بهما انتهت مطالبه عندنا».
 فى الحال ردّ الكونت الطيب دون رامون:
 «إذا أذن الملك، فردّنا على الادعاء:
 نحن لا نعارض فيما يطالب به السيد القنيطور».
 فرد الملك الطيب: «وأنا أوافق على ماتقول».
 هبّ السيد القنيطور وافقاً:
 «قل: هل سترد لى الاموال التى أعطيتها لها،
 أو كل ما هنالك، أنك تعطينى الحق فيها».
 انتحى أميراً كاريون، وأنصارها جانباً،
 لم يتفقا على كلمة، كان المال المطلوب منها باهظاً،
 وأنفقاه كله، لم يُبق منه على شيء أميراً كاريون،
 ثم عادا إلى المجلس ييسطان وجهة نظرهما:
 «لقد سخا علينا فى الإهداء، من ربيع بلنسية،
 لأنه كان يشتعل نهماً إلى ثرواتنا، وينظر إليها فى غيرة،

ولإرواء نهمه، سوف نقطعه جزءاً من أرضينا في كاربون». بعد هذا التصريح تدخّل القضاة :

« إذا أرضى ذلك السيد فلن نعارضه نحن،

لكن نحن الذين نصدر الحكم، فتلك مهمتنا،

أن تعطوه هنا، في مجلس البلاط، الأموال التي أعطاهم لكم».

وبعد هذه الكلمات تحدث الملك دون ألفونسو :

«نحن نعرف جيداً كل ما يتصل بهذه القضية،

وحق ما يطالب به السيد القنبيطور،

من الثلاثة آلاف التي يطالب بها، مائتا مارك عندي أنا،

قدّمها لي أميراً كاربون كلامها،

وأودّ أن أردّها لهما اليوم، فما يملكان قليل،

لكي يردّها إلى السيد، من في لحظة سعد جاء إلى الحياة،

مادام عليهما أن يدفعوا ما أخذوا، أنا لا أريد هذه الأموال».

اسمعوا ما تحدّث به الكونت فرنان جنتالث :

« ما نملكه نحن الاثنان من عملة جيدة قليل».

فرد عليه الكونت دون رامون :

« لأنكم أنفقتم ما أخذتم منه، ذهباً أو فضة،

لحضرة الملك نتقدم بطلب جديد :

أن تدفعوا له أشياء تساوي ما أخذتم، ويقبلها القنبيطور».

وجد أميراً كاربون أنه لا مفرّ من تنفيذ ما حكم به عليهما.

وشهد الناس خيلاً كثيرة دريرة تحي،

وبغالا فارهة وأفراساً حسناً،

وسيوفاً نادرة مصقولة، أحكم الفين صنعها،
تذهب أمام مجلس البلاط وتسلمها السيد،
إلى جانب المائتي مارك، وقدمها الملك ألفونسو،
دفعها كلها أميراً كاربون إلى من ولد في لحظة سعيدة،
لم يكفها ما يملكان فاقترضا من البعيد،
وخرجا من المجلس، ليكن في علمكم، مهزومين محقرين.

١٣٨

السيد، بعد مطالبته بالحق المدني، يستعد للتحدي

تسلم السيد ما دفع له من منقول مقابل أمواله،
أخذ رجاله كل شيء، وأصبح تحت حراستهم الآن،
انتهى من هذه القضية، وبقي شيء واحد يفكر فيه :
- «رضاك، ملكي وسيدى، وحباً في الخالق،
كبرى إهانتها لا أستطيع أن أنساها،
فليسمعني كل مجلس البلاط، وبشاركني آلامي،
لقد أهان أميراً كاربون شرفي بقوة،
فلا أقل من أن تتاح لي الفرصة، كي أتخذاهما.

١٣٩

بولاي : أي أذى الحقته بكما يا أميرى كاربون؟
حقيقة، أو ضاحكا، أو فى-أى صورة كان؟
نا، أمام مجلس البلاط، أطالبكما بالتعويض،

لأى سبب مرّقتما شغاف قلبي ؟
 عندما خرجتما من بلنسية، سلّمتمكما بنتي بيدي،
 معها أعطيتكما أموالا طائلة، وأجريت لكما كل مراسم التشريف،
 إذا لم تحبّانها، أيها الكلبان الخائنان،
 لماذا رحلتما بهما من بلنسية، ومعهما الشرف والمال ؟
 لماذا أوثقتاهما بالكلايب، وجلدتماهما بالسياط ؟
 في غابات كوريس تركتما بنتي وحيدتين،
 تحت رحمة الطيور الجارحة، والحيوانات المفترسة،
 العار الذي ارتكبتاه هناك، ذهب بكل ما لكما من قيمة،
 فليحكم مجلس البلاط في القضية، إذا لم يردّا لي اعتباري».

١٤٠

جدل بين غرسية أرودونيث والسيد

نهض الكونت غرسية أرودونيث واقفاً:
 «رضاك، يا سيدي، ملكنا، وأفضل كل من في إسبانيا!
 تعود سيدي على مجالس البلاط الحاشدة،
 وترك لحيته تغزر وتطول،
 وإذا كان بعض الناس يخافون، والآخرين يشعرون إزاءه بالرعب،
 فأميرا كاربون ينتميان إلى أعلى طبقة،
 وهاتان البنتان لا تصلحان لهما، حتى ولا مجرد عشيقتين،
 فمن يستطيع إذن أن يقدّمهما للأميرين زوجتين شرعيتين ؟
 لقد استخدمنا حقها عندما تركناهما،

وكل ما يقوله السيد، لا يساوى فى الحقيقة شيئاً». فرد القنبيطور، وهو يداعب لحيته :
« شكراً لله خالق الأرض والسماء !
طالب لحيتى لأنها نمت بالهدايا،
ليس هناك ابن امرأة استطاع أن يمسه،
كان أبوه مسلماً ، أو كان ابن مسيحي،
على نحو ما عبثت بلحيتك، وانتزعت شعيرات منها، فى حصن قبرة،
فى اليوم الذى استوليت فيه على قبرة، أخذتك من لحيتك،
حتى أحقر لص عبث بلحيتك الطويلة،
والجانب الذى اقتلعت شعيراته، مازال واضحاً، لم يَم كالبقية بعد،
أما الشعيرات نفسها، فازلت أحفظها، جئت بها فى حقيبتى هذه ».

١٤١

فرناندو يرفض التهمة

فى الحال وقف الأمير دون فرناندو،
فاسمع ما تحدث به صارخاً، فى صوت مرتفع :
« دعنا من هذا يا سيد، وقل لنا غير هذا الكلام،
لقد دفعنا لك ما طلبت من أموال كاملاً غير منقوص،
لا توسع شقة الخلاف بيننا وبينكم،
فنحن تجرى فى عروقنا دماء أمراء كاربون،
نستطيع أن نتزوج من بنت أى ملك أو إمبراطور،
وليس من بنات وُلدن فى بيت أمير ناشئ صغير،

لقد تركنا بنتيك عدلا، وفي ظل القانون،
ونحن الآن أرفع قدرا، يجب أن تعرفه، ولن ننقص شيئا.

١٤٢

السيد يدفع بدرو برمودث إلى التحدى

وقع نظر سيدى روى دياث على بدرو برمودث:
«يرمودو، ألا تتكلم، هل أنت الفارس الذى يصمت دائما؟
إنهما بالنسبة لى بنتاى، بالنسبة لك ابتا عمك، أختاك،
إذا قيل هذا الكلام لى فيه يشدونك من أذنك،
إذا رددتُ أنا أولا، فلن تكون معنا فى مواجهة السلاح.

١٤٣

بدرو برمودث يتحدى: فرناندو

حينئذ حاول بدرو برمودث أن يتحدث،
فخانه لسانه، وضاعت على شفثيه الكلمات،
لكنه عندما بدأ، ليكن معلوما، اندفع بلا توقف:
«سيد!... أعترف بأن لك عادة فريدة
فى مجالس البلاط، كم من مرة دعوتنى بير مودو!
وأنت تعرف جيدا أننى فى مثل هذا الحالات لا أستطيع شيئا،
وإذا كان لايد أن أصنع شيئا، فلن أخيب لكم رجاء،
فما قال الأمير فرناندو قليل من الكذب،
فأنت فى نظر القنيطور تساوى أكثر مما تعتقد،

أذكر شيئاً من حياتك، وسأحكىها لك،
هل تذكر عندما كنا نقاتل قريبا من بلنسية العظيمة،
وطلبت من القنبيطور الوفاء أن تكون أول من يقاتل،
فلما رأيت مسلماً، تبيأت لمهاجته،
ولكنك مسرعاً آثرت الفرار، قبل أن تقع عليك عيناه،
ولو لم ألحق بك معينا، لسخر منك المسلم على نحو لآحمد عقباه،
ثم تركتك خلقي، ولا حقت المسلم عجلاً، كان على أن ألقاه،
بعد ضربات قليلة، سقط قتيلًا، فارق الحياة،
أعطيتك فرسه، وأصبح ملكك واتفقنا على الكتان،
وحتى هذه اللحظة ما عرف الخبر أحد، لم يكتشفه إنسان،
وجرؤت على أن تزهو أمام سيدي والآخرين؛
بأنك قتلت ذلك المسلم، في مغامرة ليس لها مثل،
صدقوا كلماتك كلها، لم يفكر أحد أبداً أن الحقيقة غير ما تقول،
لا أنكر أنك جميل؛ ولكنك أكثر من ذلك عرييد جبان،
لسان طويل بلا سواعد، كيف إذن تجرؤ على الكلام؟

١٤٤

بدر و برمودث يواصل تحديه

قل لي فرناندو، اعترف بما سأحكىه :
ألا تذكر ما حدث لك في بلنسية مع ذاك الأسد،
عندما كان سيدي نائماً وانطلق الأسد من مريضه،
وأنت، فرناندو، ماذا صنعت بجينك الذي لا يقهر؟

اختبات تحت أريكة سيدى القنبيطور!
استلقت هناك فرناندو، وذلك ما ذهب باحترامك،
أحطنا جميعاً بالأريكة لحماية سيدنا،
حتى استيقظ سيدى فاتح بلنسية،
فنهض من أريكته، وتقدم نحو الأسد،
فظاطأ الأسد رأسه، وبق سيدى منتظراً
ثم قاده من رقبته، وردّه إلى قفصه من جديد،
وتطلّع حوله، فإذا أتباعه محيطون به،
وعندما سأل عن صهره لم يقف لهما على أثر،
أنت شخصياً، أتمدك، لأنك خائن وشرير،
أتمدك هنا، أمام الملك دون ألفونسو،
فى سبيل بنى السيد، دونيا إلبيرا و دونيا سول،
إنكما بالتخلي عنها فقدتما ما كان لكما من احترام قبل،
وعندما يبدأ التحدى، إذا أراد الخالق،
فسيكون عليك، أنت نفسك، أن تعترف بأنك تصرفت كخائن،
ما قلته هو الحقيقة، وواجبى أن أكون مع ما هو حق».
وعند هذا القدر توقفت الخصومة بينهما.

١٤٥

دييجو يرفض اتهامه بالجبن

أصغوا جيداً إلى ما قاله الكونت دييجو جنثالث :
« فى عروقنا يجرى دم نبيل، ونحن من أصفى الأسر نسيا،

لكم تمنيت أن هذا الزواج لم يتحقق أبداً،
حتى لا يلتحم نسبنا مع سيدي دون لذريق بأية حال،
تركنا بنتيه، ولسنا على ذلك من النادمين،
وتستطيعان أن ترسلنا زفرائها حارة ما امتدت بهما الحياة،
وما وجهناه لهما من إهانة سنلقاهما به على الدوام،
وأقول متحدياً أكثر الناس شجاعة،
بعد أن تخلينا عنها ازددنا شرفاً عما كنا عليه.

١٤٦

مرتين أنتولينيث يتحدى ديجو جنثالث

هَبَّ مرتين أنتولينيث واقفاً :
« اسكت أيها الخائن، لسان لم يتعود أن يقول الحقيقة،
حادث الأسد ذاك يجب ألا تنساه،
هربت من الباب، واختبأت في حظيرة الثيران،
وبعدها لجأت إلى أسوار معصرة النبيذ،
من يومها لم تستطع أن ترتدى صداراً ولا عباءة،
ذلك ما أتحداك به، ولا أتجاوزته إلى ما عداه،
لقد أردتما أن تفارقا بنتي السيد،
على أي حال، هما به أكثر شرفاً؛ وهو ما يجب أن تعرفاه.
في مجال التحدي، عندما تخين ساعتك، ستقوله عن نفسك بلسانك :
كنتُ خائناً، وكذاباً في كل ما قلتُ ».

١٤٧

أسور جنثالث يدخل مجلس البلاط

انتهى الخصام بين الاثنين على هذا النحو.
حينئذ وصل أسور جنثالث ودخل القصر،
يرتدى عباءة من فراء، ويجر رداء من حرير،
متورّد الوجه، فقد أنهى غذاءه من قليل،
فما يتحدث، قليل الاهتمام بما يقول :

١٤٨

أسور يشتم السيد

«أيها الفرسان، متى رأيتم شيئاً حدث على نحو ما يجري الآن؟
من يقل إن جانب النبل فينا يعود إلى سيدي، ابن بيبار،
فليذهب إلى نهر «أوبيرنا» يعمل في طواحينه،
وليقبض ثمن عرقه حفنات من دقيق، وهو ما يدفعونه عادة هناك!
من ذلك الذي يجرؤ على أن يخلط بدمه دماء أمراء كاربون؟»

١٤٩

مونيو جوستيوث يتحدى أسور جنثالث - رسل من نبرة وأرجون
يطلبون يدى بنتى السيد لابنى ملكيها - دون ألفونسو يبارك
الزواج الجديد - مينايا يتحدى أمراء كاربون - غومث بلاث يقبل
التحدى، ولكن الملك لا يحدد موعداً إلا لأولئك الذين رغبوا

فيه من قبل - الملك يحمي تحديات السيد الثلاثة - السيد يقدم الهدايا للجميع مودعا - الملك يخرج من طليطلة مع السيد، ويأمره أن يسابقه بجواده

حينئذ هب مونيو جوستيوث واقفاً :

« اسكت أيها الغدار، فأنت شرير وخائن،

أنت تتغدى أولاً، ثم تذهب بعد ذلك للصلاة،

والذين تبادلهم قبلة السلام في الكنيسة سوف ترعجهم راثحتك الكريهة،

أبداً لم تقل الحقيقة في حياتك ، لا للسيد ولا للصديق،

وأنت خداع للجميع، ومع الخالق أكثر خداعاً،

لا أريد صداقتك، ولا علاقة من أي لون،

وسأرغمك على أن تعترف أنك كما قلتُ .»

وقال الملك ألفونسو : « اسكت، دع النقاش.

الذين ألفوا التحدى وقبره يتبارزون، فليساعدنا الله !» .

وما أن انتهوا من الحديث، وقد عرض كلُّ وجهة نظره،

حتى اقتحم فارسان مجلس البلاط في نفس اللحظة :

أولهما يسمى أوخرا، والآخر يُدعى إنيجو خمينيث.

أحدهما رسول أمير نبرة،

والثاني بعث به أمير أرجون،

قبلا يدي الملك دون ألفونسو،

وطلبا بنتي سيدي القنبيطور،

لتصبحان ملكتين في نبرة وأرجون،

كزوجين شرعيتين، بشرف وعقد،

صمت الجميع، وسمع ما يطلبان كل مجلس البلاط.

نهض واقفا سيدي القنبيطور :

« رضاك أيها الملك ألفونسو، فأنت سيدي !

ذلك ما أشكر الخالق عليه،

أن يطلب بنتي ملكا نيرة وأرجون.

من قبل أنت الذي زوجت بنتي، ولست أنا،

لقد وضعتها في حمايتك، بين يديك،

ودون أمر منك لا أقدم على عمل شيء. »

صمت المجلس عندما انتصب الملك واقفا :

« أرجوكم يا سيد، أيها القنبيطور الشجاع.

اقبل هذا الطلب، وسأعطيكم موافقتي الآن،

ذلك الزواج أوافق عليه، وأنا هنا في مجلس البلاط،

وستريح من ورائه أرضاً وشرفاً ونبيلاً. »

فوقف السيد، ثم تقدم نحو الملك، وقبل يديه :

« كل ما يرضيكم سيدي، يسعدني أنا وأوافق عليه. »

وأضاف الملك : « لقد عوضك الله خيرا كثيراً،

وأنا أؤخرا وإنييجو خمينيث أقول لكما :

إنني وافقت على الزواج الآن، وسأكون أنا،

من يقدم يدي بنتي السيد. دونيا إلبيرا و دونيا سول،

زوجتين للطيبين أميري نيرة وأرجون :

زوجتين شرعيتين، بشرف وعقد. »

نهض واقفاً أؤخرا، ونهض معه إننييجو خمينيث،

تقدما نحو الملك دون ألفونسو، وقبلًا منه اليدين،
ثم صنعا نفس الشيء مع سيدي القنبيطور،
تمت الخطوبة، وأقسم الجميع اليمين،
أن يتم كل شيء على ما اتفقا عليه، أو أفضل،
وسرًا ما حدث كلُّ من في مجلس البلاط،
غير اثنين لم يسرها الأمر، وهما أميرا كاريون،
ثم وقف مينايا ألبار هانييث :
« أود أن أطلب موافقتكم سيدي وملكى،
والآ يؤلم ما أقول السيد القنبيطور،
كثيرون استطاعوا في هذا المجلس أن يتحدثوا كما يحبون،
وأود أن أكون مثلهم، عارضا وجهة نظرى ». .
فرد الملك : « ذلك شيء يسعدن من القلب،
قل إذن يا مينايا كل ما تريد، على نحو ما تحب ». .
« إنى أرجوكم، وأرجو كل مجلس البلاط أن يسمعنى،
فلدى شكوى أليمة من أميرى كاريون،
باسم الملك ألفونسو، قدمتُ لهما بنتى عمى،
فتلقياهما زوجتين شرعيتين وشريفتين،
وأهداهما سيدي القنبيطور أموالا هائلة،
وما لبثا أن تركا زوجتيهما، عابثين بشرفنا،
إنى لأتحذى الأميرين، شريرين وخائنين،
جرى في عروفتكما دماء أسرة بنى غومث،
منها المحدثما، أميرين محترمين وشجاعين.

ولكنكما نعرفان اليوم، ما تصنعان من أحابيل،
 إن أتوجه إلى الخالق بشكرى العظيم،
 لقد طلب يدَ بنتى عمى، دونيا إلبيرا و دونيا سول،
 زوجتين شريفتين، أميرا نبرة وأرجون،
 كانتا بالأمس زوجتيكما الشرعيتين على مستواكما،
 والآن عليكما أن تنادياهما : سَيِّدَتِي، وأن تقبلا منهما اليدين،
 وكل واحد منكما يصبح لهما خادما، مهما ساءه أو كان من الغاضبين،
 منكرا لإله السماء، وللملك دون ألفونسو،
 لقد ازداد سيدي القنبيطور شرفا وقدرًا.
 ومهما يكن، فأننا هكذا، وعلى نحو ما أقول،
 ومن يجرؤ على أن يناقش، أو يقول لا،
 فليعلم أنني ألبار هانييث، خير الرجال، وأشجع الفرسان.
 حينئذ نهض غومث بلايث واقفا :
 « ما قيمة ما قلت يا مينايا من حديث طويل ؟
 كثيرون هنا، في هذا المجلس، يستطيعون أن يطاولوك،
 ومن يقل شيئا آخر، فإنما يحفر قبره بيديه،
 وإذا أراد الله، فسوف نخرج من هنا سالين،
 ويبقى عليك أن ترد فيما بعد على ما قلت وبه نفوحت ».
 فتدخل الملك : « لقد انتهت المناقشة،
 ولن يسمح لأى طرف بأن يعود فيتحدث فيه،
 ولتكن المباراة غداً عندما تشرق الشمس،
 ثلاثة ضد ثلاثة، وهم الذين تحدوا في مجلس البلاط ».

أراد أميراً كاريون الكلام،
«اضرب لنا موعداً آخر أيها الملك، فقدنا من المستحيل،
سلاحنا، وخيلنا، أعطيناها كلها للسيد القنبيطور،
قبله علينا أن نذهب إلى أراضي كاريون».
فالتفت الملك إلى القنبيطور:
«ستكون المباراة على نحو ما تريد أنت».
حينئذ ردّ سيدي: «لن يكون ذلك سيدي،
أفضل أن أذهب إلى بلنسية، على أن أذهب إلى كاريون».
فرد الملك: «ليكن ذلك يا قنبيطور،
أعطني فرسانك مع كل أسلحتهم،
يذهبون معي، في رفقتي، وسيكونون في حمايتي،
أفعل ذلك، مع تابع طيب، ذلك واجب السيد،
لن يتعرضوا لأى أذى، من كونت أو أمير،
وسأقترح أنا الموعد في مجلس البلاط.
في نهاية الأسبوع الثالث، يكون لقاءنا في سهول كاريون،
وستتم المباراة بإشرافي، في محضرى،
ومن لا يفي بالموعد يخسر كل حق،
يُمكن اعتباره مهزوماً، وينسحب كخائن».
وقد علم بهذا الأجل أميراً كاريون،
قبل السيد يدي الملك:
«بين يديكم أترك فرسانى الثلاثة في أمان،
وبهم أوصيكم، كملك لى وسيد،

كلهم مستعدون ليؤدوا واجبهم بشرف،
أبعث بهم إلى بلنسية شرفاء بحق الخالق!». .
فرد عليه الملك: «إن شاء الله».
هناك نزع كوفيته السيد القنييطور،
كوفية من نسيج رقيق، بيضاء في لون الشمس،
وأظهر لحيته، نزع عنها ما كان يسترها من غطاء،
لم يتعب واحد في المجلس من النظر إليه وتأمله،
ثم تقدم إلى الكونت دون إنريك، والكونت دون ريمون،
عانقهما بحماسة، وطلب إليهما من القلب،
أن يأخذا من ثرواته وأملاكه كل ما يجبان.
ثم توجه إلى حاشيتهم، فرسانهم والذين حولهم من الاتباع،
يرجوهم أن يتخيروا من أمواله كل ما يحلو لهم،
قبل الهدية بعضهم، وشكره عليها آخرون،
وأبرأ فمة الملك من المائتي مارك التي عنده،
وعرض عليه أن يتخير مما لديه ما يقع من ذوقه موقع الرضا والقبول:
«أطلب عفوكم، يا ملكي، بحق الخالق!
لقد حللت كل المشاكل، ووصلت بكل أمر إلى غايته.
أقبل يديكم؛ وأطمع في رضاكم يا سيدي؛
لأن أود العودة إلى بلنسية؛ ولربحها بذلتُ الغالي من التضحيات».
حينئذ أمر السيد بإعطاء رسل أميرى نبرة وأرجون ما اختاروا من
الحيوانات؛ وكل ما يحتاجون إليه، ثم ودّعهم.
وامتطى الملك دون الفونسو جواده؛ ومعه كبار فرسان بلاطه لتوديع

السيد الذى سيغادر المدينة، وعندما وصلوا إلى ميدان «السوق المدور»، كان السيد ممطياً صهوة فرسه، وينادونه «بييكا»، فقال له الملك: «دون لذريق، لكم أحببت لو رأيتك تطلق العنان لفرسك هذا منطلقاً، فكثيراً ما حدثون عنه». فابتسم السيد قائلاً: «سَيِّدى، هنا فى بلاطك كثيرون من الرجال المشهورين، والقادرين على هذا، مُرهم إذن أن يجارلوا هذا بجيهم» فردَّ عليه الملك: يا سيد، حقاً ما تقول، ولكنى، مع ذلك، أود أن أرضى حاجة فى نفسى، من أجلى، هيّا انطلق به».

١٥٠

الملك يعجب «بييكا»، ولكنه لا يقبله هدية - وصايا السيد الأخيرة إلى المبارزين الثلاثة من فرسانه. عودة السيد إلى بلنسية - الملك فى كاريون. حلول موعد المباراة، أميراً كاريون يجاولان استبعاد السيفين «كولادا» و «تيشون» من المباراة - فرسان السيد يطلبون الحماية من الملك ويخرجون إلى ساحة المباراة - الملك يعين حكام الحلقة ويؤنّب أميرى كاريون - الحكام ينظمون المباراة - اللقاء الأول - بدرو برمودث يهزم فرناندو.

اطلق السيد العنان لفرسه، فاندفع كالريح، وكان فى سرعته موضع اعجاب لجميع،

فرغ الملك يده، وصلب على وجهه:

«أحلف بالقديس إسيدورو، الموقر فى ليون،

أنه لا يوجد فى كل أراضينا، فارس أعظم منه».

عاد السيد، وحيثُ تقدّم بفرسه،

وذهب ليُقبل يد سيده دون ألفونسو،
 «لقد أمرتني أن أنطلق بييكا، الفرس الدرير،
 لا يوجد له شبيه في السرعة، لا عند المسلمين ولا المسيحيين،
 إنه هدية مني، وأرجوك أن تتقبلها سيدي».

حينئذ قال الملك: «ذلك فضل أعفني منه.
 إذا تركت لي الفرس، فلن أجد له السيد الفارس،
 فرس عظيم كهذا جدير بك أنت،
 لكي تتصر على المسلمين في المعركة، وتمضي في لحاقهم،
 وإذا انتزعه منك أحد، فلن يرضى الخالق عنه،
 نحن بك وفرسك، نزداد مع الأيام شرفاً».

ثم توادعا، وانتهى اجتماع مجلس البلاط.
 زود القنيطور الذاهبين إلى المنازلة بنصائحه:

«يا مرتين أنتولينيث، وأنت يا بدرو برمودث،
 ومعكما مونيو جوستيوث، تابعي الوق،
 اثبتوا ساعة اللقاء، وبارزوا كرجال،
 سابق في بلسية متلهفاً لأخباركم الطيبة.

قال مرتين أنتولينيث: «لم تقول هذا سيدي،
 لقد عرفنا مهمتنا، وعلى استعداد لنؤدى واجبتنا، كأفضل ما يكون،
 ربما يقال لك إننا قُتلنا، أما هُزمتنا فلا...».

سرَّ عما سمع، من في لحظة سعد طرق باب الحياة،
 ودع الجميع، وكلهم له أصدقاء،
 سلك السيد طريقه نحو بلسية، واتجه إلى كاربون،

انتهت الأسابيع الثلاثة. وحلّ موعد الأجل،
 حافظَ عليه فرسان السيد القنبيطور،
 أرادوا أن يوفوا بما عاهدوا عليه سيدهم،
 كانوا في حماية دون ألفونسو ملك ليون،
 ومر يومان قبل أن ييجئ أميراً كاربون،
 وصلاً؛ كلٌّ على فرس رائع التسريح، ومعها سلاح جديد،
 تمخّذاً برهة مع أقاربهما، وتلقياً منهم النصح،
 بأن يبتعدا ما استطاعا عن فرسان القنبيطور،
 وأن يقتلوهما في الساحة مهدرين شرف سيدهم،
 كان الهدف شريراً، ولكن أحداً منهم لم يحققه أبداً،
 فكلهم يرتعبون خوفاً من ألفونسو ملك ليون،
 امتشق فرسان السيد أسلحتهم، وصلواً للخالق.
 تصرم الليل، وانشقت السماء عن فجر جديد،
 توافد على الساحة عظماء الرجال، والأغنياء، وكبار الفرسان،
 أن تجرى مباراة بهذا المستوى، حدث فذ وجذاب،
 وتميز بين الجميع الملك دون ألفونسو،
 لكى يقيم القانون، ويحول دون المظالم،
 لبس فرسان القنبيطور الطيب عدة الحرب،
 تعاون ثلاثتهم بإخلاص، فقد كانوا يخدمون سيّداً واحداً
 وفي جانب آخر، أخذ أميراً كاربون أسلحتهما،
 ومعها الكونت غرسية أوردونيميث يوالبيها النصح،
 وفجأة أثارا مشكلة، وتقدما بشأنها إلى الملك ألفونسو،

أن يستثنى من السلاح في المبارزة السيوف «كولادا» و«تثون»،
فلا يقاتل بها فرسان السيد القنبيطور،
ولكنها عادة مما يطلبان غاضبين،

فقد استمع الملك لقولها، ولكنه لم يوافقها عليه :

« إن قرار مجلس البلاط لم يستثن من السلاح أى سيف،

تستطيعان أن تستخدموا سيفكما، إذا كان رائعين،

ولهم الحق أن يستخدموا سيفي القنبيطور،

اخرجا إلى الساحة، تقدما.. هيا أميرى كاريون!

لقد قبلتا النزال كما يخطط له فارس رجل،

افعلا كما يصنع الآخرون، فرسان السيد،

إذا انتصرتما في ساحة المبارزة، حزمنا الشرف علينا،

وإذا خرجتما مهزومين، فليست هذه خطيتنا،

فالكل يعرف أنكما كنتما عنها باحثين!..

بدا الحزن واضحا على وجه أميرى كاريون،

أحسًا بالذعر، وهما يفكران فيما هما عليه قادمان،

وإذا أحجبا عنه يصبحان حديث كل من فى كاريون،

أتباع السيد القنبيطور بكل عدتهم، فى كامل سلاحهم،

تقدم منهم الملك دون ألفونسو لكى يراهم،

فى صوت واحد قال له الثلاثة :

«إننا نقبل يديك، كملك لنا وسيد،

ونطلب منك أن تكون حكما فى مبارزة اليوم،

يهمنا أن يعلو القانون، وألا يكون هناك ظلم،

هنا جاء مع أميري كاربون من عصبتهم خلق كثير،
لا نعرف ما الذي يمكن أن يقدمنا عليه وما الذي يعفان عنه،
بين يديكم، تحت حمايتكم، ألقى بنا سيدنا،
فارفع راية العدل بحق الخالق».

أحضروا لهم الخيل، قوية وسريعة،
ويعد أن صلبوا علوها في وثبة واحدة،
من رقابهم تتدلى شعاراتهم، مذهبة ذات بريق،
في أيديهم الحراب قاطعة، صنعت من حديد متين.

وكل واحد من الحراب الثلاثة تحفق أعلاه راية،
حول الساحة تجمع فرسان كثيرون مشهورون،
خرجوا إليها وقد أحاطت بها الرايات من كل جانب.

فرسان القنبيطور الثلاثة اتفقوا فيما بينهم،
اختار كل واحد منهم العدو الذي يواجهه،
وفي الجانب الآخر كان أميراً كاربون :
مع رفقة طيبة وقفوا، أقاربها كثيرون،
فاختار الملك قضاة يحكمون : أهو من حقهم أم لا...
لتجنب الخلاف حول ما يحدث هناك.

وعندما نزل المبارزون الساحة، تكلم الملك دون الفونسو :

« اسمع ما أقول لكما أميري كاربون،
لقد رفضت أن تجرى المباراة بشرف في طليطلة،
هؤلاء الفرسان الثلاثة أتباع سيدي القنبيطور،
جئت بهم تحت حمايتي إلى أراضي كاربون،

حقكما لا معارض له، أما الخيانة فلا...
 وإذا حاول أحدكما خداعاً، فسأقف ضده، أنفذ فيه القانون،
 في أرض مملكتي لن يصيبه غير الامتحان والتحقيق».
 يا له من كابوس ثقيل ذلك الذي أحس به أميراً كاربون!
 الملك ألفونسو والقضاة خططوا على الأرض كل الحدود،
 ثم تركوا الساحة، وأخذوا أمكنتهم على جانب،
 وأعلم الستة المبارزين بما يجب عليهم أن يتبعوه،
 يُعتبر مهزوماً من يتجاوز الحد المقرر له،
 كل الناس تركوا ساحة المباراة، ووقفوا حولها،
 بعيداً من الحدود بما يساوي مسافة ستة رملح،
 في الحلقة واجهوا حظوظهم، يتقاسمون الشمس،
 واحتل القضاة مكاناً وسطاً، في مواجهة المبارزين،
 من هنا جاء أتباع السيد، ويموا شطر أمراء كاربون،
 هكذا واجه أمراء كاربون فرسان القنبيطور،
 كل واحد يرقب خصمه يقظاً في حذر،
 بينما شعاره بيده فوق قلبه،
 أنزلوا رماحهم، وبقيت راياتهم تحفّق في الهواء،
 واتكأ كل مقاتل على حافة سرجه،
 وهمز كل واحد جواده فاندفع واثباً،
 وحيثما تحركوا فإن الأرض تضطرب من تحتهم،
 ونظر كل إلى خصمه على النحو الذي يوافق هواه،
 تجمّع أتباع السيد الثلاثة، وهكذا فعل أمراء كاربون،

والنظارة حولهم، في كل لحظة، يتوقعون سقوطهم قتلى.
كان بدرو برمودث أول من برز وتحدى
فرنان جنثالث، وجها لوجه التقى معه،
تبادلا الطعن بشعاريهما، دون أدنى خوف،
فرنان جنثالث رمى بدرو بشعاره،
لكن الضربة ضاعت في الهواء، فلم تبلغ منه اللحم،
وبها تحطم رمحه، وانكسر نصفين،
بقى بدرو برمودث صلبا، لم يكن في حاجة بعد إلى حراك،
إذا تلقى طعنة رد عليها باثنتين،
حطم له قاعدة شعاره، فتناثرت على الأرض،
ظل ينقله من جانب إلى جانب، دون أن يمنعه سبب،
ثم ثبت رمحه في صدره، قريبا من القلب،
كان درع فرناندو مثلثا، وهذا ما أنقذه،
مزقت الطعنة اثنين منها، وقاوم الثالث،
غير أن العباءة والقميص، وما تحتهما من ملابس،
من شدة الطعنة غاصت كلها في اللحم،
ومن ثم تدفق الدم حاراً غزيراً،
وتمزقت أحزمة فرسه، لم يبق منها واحد سليما،
ثم تهاوى الفرس، فوقع على ذيله، واستقر في الأرض،
وظن كلّ الناس أن طعنة الموت أصابت الكونت،
ترك الرمح معلقا فيه، ثم انقض عليه بالسيف،
فلم يكد فرنان جنثالث يرى «تيشون» حتى تعرّف عليه،

ودون انتظار لطمعة منه صاح عالياً : « أنا مهزوم » .
فأمضى القضاة ما قال، وتحلى بير برمودث عنه .

١٥١

مرتين أنتولينيث يهزم ديجو

دون مرتين و ديجو جنشالت تواجها بالرمح،
كانت طعناتها قوية، حتى تكسرت النصال على النصال،
فاستل مرتين أنتولينيث سيفه،
فغطى بريقه كل الحلقة، كان صافيا نظيفا ساطعا،
وفي هجمة واحدة طعن أمير كاربون طعنة نافذة،
فاطاح بمخوذته من فوق رأسه في قوة،
قطع رباطها في ضربة واحدة،
فكشف غطاء الرأس، وبلغ حتى الكوفية،
والقى بها كليهما أرضا، الكوفية والغطاء،
جز شعر رأسه، وبلغ منه عمق اللحم،
أشياء كثيرة تناثرت في الحلقة، وبق له بعضها،
عندما طعنه بجد « كولاذا » البتار،
أحس الكونت ديجو جنشالت أنه لن ينجو بحياته !
فشد شكيمة الفرس ليعود من أمام،
شاهرا سيفه في يده، ولكنه لم يمرؤ على الطعان،
فتلقاه مرتين أنتولينيث بسيفه،
ثم أطبق عليه بطعنة جاءت عالية فلم يبلغه،

حينئذ صاح الكونت ديجو عالياً، بصوت مرتفع :
 « أنقذني يا إلهي المجيد، ياسيدى.. احمنى من هذا السيف ! »
 أطلق العنان لفرسه، ناجياً بنفسه من «كولادا»،
 تجاوز الخط المحدد له، وبقى مرتين وحده في الحلبة،
 فناداه الملك : « تعال عندي، إلی بلا تأخير،
 نضالك في الحلبة، يجعل منك المتصر الوحيد ».
 ووافق القضاة على أن الملك قال الحقيقة.

١٥٢

مونيو جستيوت يهزم أسور جنثالث - والد الأميرين يعلن انتهاء
 النزال - أتباع السيد يعودون حذرين إلى بلنسية - فرحة السيد -
 الزواج الثاني لبنتي السيد - الشاعر يختم ملحمة

انتصر الاثنان، والآن أحدثكم عن مونيو جستيوت،
 كيف واجه أسور جنثالث في هذا اللقاء،
 ضربات قوية تتساقط على شعاريها،
 أسور جنثالث رجل قوى وشجاع،
 وجه طعنته إلى الشاعر الذي يحتضنه دون مونيو جوستيوت،
 صده الدرع الذي يرتديه وراء الشاعر،
 فراح يطعن برمحه في الهواء، دون أن يبلغ من جسمه شيئاً،
 وجاء الدور على مونيو جوستيوت ليوجه طعنته.
 اختار لها الوسط مكاناً، فتمزق معها الشاعر،
 لم يستطع أسور أن يتجنبها وقد تراجع الدرع أمامها،

أصابه في اللحم الحى، ولكن بعيداً عن القلب،
ووالى طعنه بالرمح وبرأس رايته،
وأنفذ فيه رمحا، جرحه من الجانب الآخر،
ثم وجه إليه طعنه قاصمة، هزته فوق سرجه،
وعندما حاول أن ينتزع منه الرمح كان مستلقيا على الأرض،
وأصبح الرمح، والسيف، والراية، حمراء نسج في الدم.
واعتقد الناس جميعاً أنها طعنة الموت،
ثبت مونيو رعه، واتجه إليه جثة على الأرض،
فصاح جثثالو أنسورث: «لاتمسه بحق الله!
إنه مهزوم في الحلبة، لقد انتهى كل شيء!».
فردّ الفضاة: «لقد سمعنا جميعا ماتقول».
أمر الملك ألقونسو بإخلاء الحلبة،
أخذ لنفسه الأسلحة التي تركت عليها،
رحل اتباع القنبيطور وهم في ذروة الشرف،
لقد انتصروا في المبارزة، شكرا للخالق!
وعم الحزن والأسى كل أراضي كاريون،
وأمر الملك بأن يرحل اتباع السيد ليلا،
حماية لهم من الانتقام، وزيادة في الأمن،
كانوا عقلاء، فواصلوا السير نهارا بليل،
وهامم أخيرا في بلنسية مع السيد القنبيطور،
لقد خلفوا وراءهم أمراء كاريون يتجرعون كأس الذل،
أدوا الواجب الذى كلفهم به سيدهم،

بالفرحة السِّد القنيطور بهم!

بينما أصبح أمراء كاريون محط الاحتقار الشديد.

من بين زوجه، ثم يتخلى عنها،

بنته به الأمر إلى الإهانة أو ماهو شر منها،

ولكن، فلندع حكايات أميرى كاريون،

وقد أصبحا موضع المثل فيما نالا من عقاب،

من الخير أن نتحدث الآن عنم وُلد في لحظة سعيدة،

عمت المهرجانات الكبيرة كل بلنسية العظيمة،

فقد عاد أتباع سيدي متصيرين وشرف،

وداعب زوى دياتا لحيته وهو سيدها:

«شكراً لملك السماء. لقد ثارتُ لشرف ابنتى.

لم تعد مصدر هم لنا أراضى كاريون

ومهما يكن من شىء، أستطيع أن أزوجهن الآن دون خجل،

أدى مهمتهم رسل أميرى نبرة وأرجون،

ثم اجتمعوا مع دون ألقونسو ملك ليون،

وأقيمت احتفالات عظيمة لزواج دونيا إلبيرا ودنيا سول،

وإذا كان الزواج الأول عظيمًا فالثانى أعظم منه،

وشرفت به الأسرة أكثر مما شرفت بسابقه،

انظر، كيف يزداد مع الأيام شرفاً من ولد في لحظة سعيدة:

أصبحت بنتاه سيدق نبرة وأرجون،

ومن نسلهما ينحدر ملوك اسبانيا اليوم،

وكلهم ازدادوا شرفاً من في لحظة سعيدة جاء إلى الحياة،

لقد ترك سيدي، سيّد بلنسية، هذا العالم،
 أيام عيد الفصح، غفر له المسيح!
 وغفر لنا جميعاً مخطئين وصالحين،
 تلك هي قصة سيدي القنبيطور،
 وعند هذا الحد، نكون قد أتينا عليها، بلغنا نهايتها.



لقد انتهت القصيدة،
 فهبوا شيئاً من النيذ،
 فإذا لم يكن عندكم فبعض الدنانير،
 أو شيئاً من الملابس تتركونه هناك،
 وما أجهل أن تعطون الملابس مع المال والنيذ.

المعجم الجغرافي

حاولنا في السطور القليلة الآتية أن نعطي تحديداً موجزاً لبعض الأسماء الجغرافية التي مرّت عبر الملحمة، وجلّها أسماء أقرى صغيرة، بعضها تلاشى فلم يعد له وجود، وبقي البعض الآخر، بينما ازدهر القليل منها وأصبح مدناً كبيرة، ولقد عرفنا بما يجمله القارئ العربي، دون أن نعرض للمدن الأندلسية ذات الشهرة المستفيضة، مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة وبلنسية وإشبيلية، وغيرها، ويعرفها كل من له إلمام ولو قليلاً بالتاريخ، وجرينا في ترتيبها على النحو الأبعدى تسهيلاً للإفادة منها :

- أتিকা Ateca ، قرية على نهر شلون، على بعد ١١ كيلو متراً من الحامة.
- أربو خويلو Arbujuelo ، واد على نهر شلون.
- أريثا Ariza ، قرية على نهر شلون في مقاطعة سرقسطة.
- إسبيناث دي كان Espinaz de Can ، مكان مجهول اليوم، ويظن أنه كان يقع في مقاطعة برغش، جنوب مدينة سيلوس Silos .
- أنكيتا Anquita ، هي اليوم مدينة Anguita ، وتقع على نهر تاخونيا، شرق سيجويتا.
- ألوقات Alucat ، هي اليوم ألكاوت دل ري Olocaut del Rey ، وعندها تنهى الحدود الغربية، لمقاطعة قسطليون. وتقع على بعد ٥٠ كم من مدينة نت ريال.

- أوندو Onda ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعة بلنسية.
- بريانا Burriana ، قرية جنوب قسطليون ، مجاورة لمقاطعة بلنسية ،
- بنى كادى Benicadell ، وتكتب أحياناً Pena Cadiel أو Pennacatel ،
وتقع على الحدود التي تفصل بين مقاطعتي بلنسية وألقت.
- بويو El Poyo ، قرية تقع على الضفة اليسرى لنهر شيلوكا Jiloca في
الطريق إلى قلعة أيوب ، ويحكمها جبل مرتفع ، وتبعد ١٠ ك.م من قرية منت
ريال ، وتقع في مقاطعة سرقسطة ، وكان يطلق عليها قديماً بويو سيدى ، نسبة
إلى السيد.
- بوبييركا Bubierca قرية على نهر شلون ، على بعد خمسة كيلو مترات من
الحامة.
- تارانث Taranz ، هو السهل الذي يفرق بين نهري تاخونيا وشلون ، في
الحدود بين مقاطعتي وادى الحجارة وسورية.
- تيرير Terer قرية على نهر شلون ، على بعد ٧ كيلومترات من أتيكا.
- تير Tever ، واد بين نهري مونروى وتستينا ، في الحدود الفاصلة بين
مقاطعتي طركونة وقسطليون.
- التيرويل Teruel : إحدى مدن إسبانيا الحديثة الكبيرة ، في الجانب
الشرق منها.
- تيتينا Cetina ، قرية على نهر شلون في مقاطعة سرقسطة.
- ثيلا Cella ، قديماً Celha أو Celfa ، قرية على بعد ثلاثة أميال من
التيرويل ، وتضم عددا من بقايا الآثار الرومانية.

- جبالة Gebolla ، وتسمى اليوم بويج Puig وهى على ١٨ ك.م شمالى بلنسية.
- الجبيلة Alcobiela ، وفى الإسبانية الحديثة Alcubilla ، مدينة تقع شرق مدينة سان استبان دى غرماج ، وكانت تنتهى عندها حدود مملكة قشتالة خلال أيام السيد.
- الحامة Alhama ، قرية على نهر شلون على بعد ٦ كيلومترات من ثينا.
- دروقة Daroca ، قرية فى مقاطعة سرقطة.
- ساهاجون Sahagon ، فى الوثائق القديمة San Fagunt ، تقع على بعد ٣٥ ك. م غربى كاربون وأشهر معلمها دير كان قائما أيام السيد ، ومازال حتى اليوم.
- سيرا دى مييدس Sierra de Miedes ، سلسلة من الجبال تفصل نهر تاجو عن نهر دويره.
- الشارقة Jerica ، قرية جنوب قسطليون ، مجاورة لمقاطعة بلنسية.
- شقورب Segoreb ، مدينة فى مقاطعة قسطليون.
- شتمرية Santa Maria ، تسمى اليوم البرائين ، تحوير إسبان لاسم العربى بنى رزين ، وهى فى مقاطعة التيرويل ، ويسمىها المؤرخون العرب شتمرية الشرق ، تميزاً لها عن مدن أخرى تحمل هذا الاسم ؛ أو مضافة إلى بنى رزين أنفسهم ، وحكموا فيها زمناً طويلاً.

● فرونشالس Fronchales ، قرية في مقاطعة تيرويل وتقع على بعد ٢٥ ك.م من شتمرية الشرق.

● فيجرويللا Figueruela مكان مجهول.

● قسطلون Castejon ، وتسمى اليوم قسطلون دى هنارس ، وتقع على بعد ٤٠ ك.م من سلسلة جبال مييدس ، على الضفة اليسرى لنهر هنارس.

● القصير Alcocer ، مكان مجهول اليوم ، ويجب أن يكون موقعه على نهر شلون . بين أتيكا وقلعة أيوب.

● القلعة Alcalá ، قرية صغيرة على نهر هنارس.

● قلعة أيوب Calatauth ، في الإسبانية الحديثة Caltayud ، مدينة قائمة حتى اليوم ، على بعد ستة كيلو مترات من ترتر.

● قليرة Cullera عند مصب نهر شُكر ، يحيط بها البحر ، على بعد ٣٠ ك.م من شاطبة ، و٥٥ ك.م من دانية.

● كوارتو El Cuarto ، مكان على الطريق الذى يربط بلنسية بقشتالة.

● لوثنون Loozn ، قرية في مقاطعة وادى الحجارة ، بين مدينة سالم ومولينا.

● مربيطر Murviedro ، مدينة على بعد ٢٩ ك.م شمالى بلنسية ، فى الطريق إلى قسطليون ، واشتهرت فى القديم بمسرحها الرومانى ، ومايزال باقياً ، وهى من مراكز صناعة الحديد فى إسبانيا اليوم.

● المنارة Almanara ، قرية جنوب قسطليون مجاورة لمقاطعة بلنسية.

● منت ريال Monreal أو Monnt Real ، قرية على نهر شيلوكا.

● مولينا Molina ، قرية في مقاطعة سرقسطة.

● نافاس دي بالوس Neves de palos ، في الإسبانية الحديثة Navapalos ،

قرية تقع على بعد ثمانية كيلومترات من الجبيلة، على الضفة الأخرى من نهر دويره.

● هوت Foz ، أو Hoz ربما كانت أرضاً عند منحنى شلون، وهي الآن

مكان مهجور

● هيتا Hita قرية تقع على نهر هنارس.

● وادي الحجارة Guadajara ، قرية تقع على نهر هنارس، وهي الآن

مدينة كبيرة تقع قريباً من مدريد العاصمة.

المصادر والمراجع

١ - في اللغة العربية

- ابن الأبار : الحلة السراء، القاهرة ١٩٦٣ .
- ابن أبي ذرع : الأنيس المطرب، أسالة ١٨٤٣
- ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، طبعة إحسان عباس .
- ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس، مدريد ١٩٢٦ .
- ابن عبد ربه : العقد الفريد، القاهرة، طبعة سعيد العريان .
- ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار المغرب، طبعة ليدن .
- ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس، فقرة منه، نشرها المعهد المصري في مدريد، ١٩٧١ .
- المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة .
- المقرئ : نصح الطيب، طبعة إحسان عباس .
- بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز .
- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس، من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة .

٢ - في اللغات الأجنبية

● في اللغة الإسبانية :

- Amador de los Ríos, J. :
Historia crítica de la Literatura española.
- Americo castro :
Hacia Cervantes.
De la edad conflictiva.
La Realidad histórica de España.
- Asín Palacios, M. :
La escatología musulmana en la Divina Comedia
- González Palencia, A. :
Historia de la España musulmana.
Literatura Árabe – Española.
- Marañón, G. :
Tiempo viejo y tiempo nuevo.
Vida e historia.
Raíz y decoro de España.
- Menéndiz y Pelayo, M. :
Orígenes de la Novela.
Heterodoxos españoles,
- Menéndez Pidal, Ramon :
Estudios Literarios
Poesía árabe y Poesía europea.
Idea Imperial de Carlos V.
El idioma español en sus primeros tiempos.
Poesía Juglaresca y Juglares.
El Cid Campeador.
- Millas y Vallicrosa :
Influencia de la poesía popular hispano – musulmana en
la poesía italiana.

Prieto y Vives, A. :
Los Reyes de Taifas.

Ribera y Tarrago, J. :
Disertaciones y opusculos.

Schack, A. F. :
Poesia y arte de los arabes en Espana y Sicilia.

● في اللغة الفرنسية :

Dozy, R. :
Histoïr des Musulmans d. Espgne.
Recherhes sur l'histoire et la littérature de l'Espagne
pendant le Moyen Age.

Huart, C. :
Littérature arabe.

Levi – Provençal, E. :
L'Espagne musulmane au Xe siècle. Institutions et vie
Sociale.
La Civilisation arabe en Espagne.

Pérés, H. :
La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle.

● في اللغة البرتغالية :

Duarte Nunes de Leao :
Origeni da lingua portuguesa.

Eidelino de Figueiredo :
Historia da litteratura portugueza.